جان دوست

اللّاهي

فردوس الكاتب العجوز

رواية

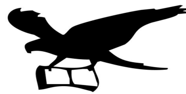


شركة المطبوعات للتوزيع والنشر

اللّاهي

جان دوست

رواية



شركة المطبوعات للتوزيع والنشر



شركة المطبوعات للتوزيع والنشر ش.م.ل.
ALL PRINTS DISTRIBUTORS & PUBLISHERS s.a.l.

الطبعة الأولى 2022
ISBN: 978-6144-58-578-8
E-ISBN: 978-6144-58-818-5

تدقيق لغوي: كامل رضا
صورة الغلاف: © شركة المطبوعات للتوزيع والنشر ش.م.ل.
تصوير: هادي مغربل
تصميم الغلاف: ريتا كلزي
الإخراج الفني: فدوى قطيش

شكر خاص لمكتبة الحلبي، بيروت، لبنان حيث جرى تصوير الصورة.

الجناح، شارع زاهية سلمان، مبنى مجموعة تحسين الخياط
ص.ب.: 8375 -11 بيروت، لبنان
هاتف: 830608 1 961+ فاكس: 830609 1 961+

الموقع الإلكتروني: www.all-prints.com
البريد الإلكتروني: publishing@all-prints.com
مواقع التواصل الاجتماعي: allprintslb

إلى زين...

قارئتي الأولى التي شاركتني هذه الأُلْهِيَّةَ الروائية من مبدئها إلى منتهاها.

إلى القرّاء... في كلّ مكان.

**هذه الدنيا تشبه لعبة «خيال الظلّ»، وما نحن إلَّا شخوصُها التي
يضعها الـمُخايِلُ وراء الستارة ويُسند إليها الأدوارَ خيرًا وشرًا.**

أحمد خاني
ملحمة مَمْ وزين
البيت 2590

ملاحظة

في هذه الرواية تعالقٌ أو اشتباك نصّي، وهي لعبة سردية مألوفة تتحدّث عن شخصيات انتزعها «الكاتبُ العجوز» من روايات عدّة. هي شخصيات حقيقية، ليس بمعنى أنها عاشت بالفعل على الأرض، لكنها عاشت في الروايات وخلقها خيال الكتّاب. يصل التعالق النصّي هنا إلى حدّ التطابق مع ما ورد في الروايات الأصل من عبارات جاءت على لسان الشخصيات أو الراوي العليم. لكنّ الكاتب العجوز لم يُشِر في كلّ مرّة إلى ذلك لعلمه أنّ الهوامش تثقل جسد الرواية وتصيبها بالترهّل. ولأنه كان حريصًا على ألَّا يقطع شيءٌ متعةَ القارئ وأن يجري نهر السرد بسلاسة تامّة، فإنه لم يأبه بإحالة الأقوال إلى مظانِّها. وفي جميع الأحوال، فلن يخفى ذلك على النقّاد وكذلك لن يخفى على القرّاء الذين راهن الكاتب العجوز أصلًا على ذكائهم وذاكرتهم القرائية القوية.

1

بعد مئة وثلاثة أيام من المعارك التي استمرّت من دون أن تعرف حتى ساعةَ هدنةٍ، اضطرّت الحياة بمظاهرها العضوية كافة أن تغادر المشهد في المدينة الرابضة على وهدة منبسطة من الأرض، جنوبي هضبة جرداء غير وعرة المسالك إلّا في جهتها الشمالية، حيث تكثر الانحدارات الحادة المهيبة والشعاب الضيّقة والصخور الضخمة الناتئة المدبّبة المخيفة المنظر. لم يبقَ في تلك المدينة سوى ما يدلّ على أنّ حربًا مروعة قد وقعت على أرضها فمحت كلّ أثر للحضارة وقتلت كلّ كائن حيّ فيها. كان من الواضح أنّ أسلحة فتّاكة قد استُخدمت في تلك الحرب المهولة. فلقد اختفت الحياة نهائيًا ولم يعد هناك سوى آثار قليلة تشير إلى حياة سابقة. فالمباني جثت على ركبها، ثمّ تفكّكت إلى مكوّناتها الأساسية من حجر وإسمنت وقضبان حديد متشابكة وموادَّ عازلة، ونوافذ وأبواب تناثرت على أسفلت الشوارع بلا حراك وقد أرهقها الصمود الأسطوري في وجه غارات الطيران وقصف المدافع وتفجيرات القنابل والألغام. كانت الأنقاض الجاثمة على الأرض ملطّخة بدماء بشرية وبقايا أشلاء ممزّقة متيبّسة ملتصقة بالحجارة والجدران. اكتَظَّت الشوارع بالجثث التي تفحَّم بعضها وتحوّل بعضها الآخر هياكل عظمية تقهقه جماجمها بسخرية مُرّة. شبّت الحرائق في كلّ مكان ثمّ انطفأت من تلقاء نفسها بعد أن التهمت الأخشاب والبضائع وأثاث المنازل والمكاتب وكلّ ما يغذّي غول النار، العنصر الرابع المحيي والمميت. النهر الصغير الذي كان يقسم المدينة إلى قسمٍ شرقي وآخر غربي جَفَّ فجأة، وظهرت في قاعه جثثٌ متفحّمة يبدو أنها لبشر هربوا من الحرائق فألقوا بأنفسهم في

النهر. أمّا الدخان الذي تصاعد في الحرب وبعدها من كلّ بيت وشارع وضاحية وحَجَبَ السماء لأيام وأسابيع عدّة، فقد اختفى نهائيًا لتظهر السماء صفراء كأنها مدهونة بالزعفران. وفي الليل، كان لون السماء يستحيل برتقاليًا من دون أن يظهر أي أثر للنجوم. وحده القمر الرمادي كان يجول في ذلك الحقل البرتقالي الواسع مثل بقعة عفنٍ دائرية.

وها هي الشمس تشرق حمراء داكنة مثل بقعة دم أو قطرة زئبق عملاقة تترجرج على صفحة السماء ثمّ ترتفع وتسير في الحقل الأصفر الشاسع من دون أن يتغيَّر لونها إلى أن تغرب لتستعيد السماء لونها البرتقالي، وتبدأ أصوات غامضة تلفّ المدينة آتية من حانة مهجورة في فندق على طرف المدينة الغربي قريبًا من غابة كثيفة الأشجار حتى تشرق قطرة الدم العملاقة من جديد.

كان القسم الشمالي من المدينة، قبل الحرب، يشتمل على محطة قطار بثلاثة أرصفةٍ تربط المدينة ببعض المدن البعيدة والضواحي القريبة، ومنها تنطلق حافلات بثلاثة خطوطٍ إلى أحياء المدينة الثلاثة، الحيُّ الأول والحيُّ الثاني، وكانا حيّين راقيين يسكنهما الأغنياء وموظّفو المدينة، ثمّ الحيُّ الثالث، وكان حيًّا شعبيًّا عشوائي التخطيط يقع إلى الجنوب من مركز الشرطة. وبجانب محطة القطار تفرّعت شوارع عدّة على جوانبها مبانٍ شاهقة ومجمَّع مدرسي من ثلاثة مبانٍ يرتادها تلاميذ المدارس الابتدائية والإعدادية والثانوية. كما كانت هناك سوق فرعية وشقق غير منجزة البناء وملعب لكرة القدم بعشب اصطناعي. شرقًا، امتدّت حديقة جيدة التنسيق على مساحة لا بأس بها، أَطلَق عليها الناس اسم حديقة البلدية - فيما كان اسمها الرسمي حديقة النصر - بعد أن افتتحها رئيس البلدية الأصلع البدين قبل الحرب بثلاث سنوات بناءً على توصية خاصة من حاكم البلاد الذي أولى تلك المدينة الحدودية عناية خاصة بعد أن كانت منسية في العهود التي سبقت عهده. إلى الجنوب من الحديقة، ارتفعت

جدران المعبد العام وكان مبنًى رمادي اللون مثلّث الشكل جميل المنظر، تحيط به من الجهات كافة، أشجار سرو شاهقة وله سور من أشجار مشذَّبة بعناية فائقة خضراء طوال العام.

إلى الغرب، ترامت أطراف غابة واسعة كانت تشكّل ملاذًا آمنًا لكثيرٍ من الحيوانات، كالسناجب والقنافذ والفئران والأفاعي والطيور، وحتى العشّاق الصغار الذين يتواعدون للقاءات محفوفة باللهفة والحذر، بالرغم من أنها تجري بعيدًا من الأعين في عتمة الغابة وبين صخور بازلتية كبيرة. كما كانت أفضل مكان يهرب إليه السكان مستمتعين بظلال الأشجار الكثيفة حين يشتدّ حرُّ الصيف. وكانت تلك الغابة الغربية، التي أطلق عليها السكان اسم غابة الأسرار لسبب غير معروف، تمتد غربًا لمسافة ثلاثة كيلومترات حتى تصل إلى حدود قرية صغيرة.

قريبًا من تلك الغابة الكبيرة ارتفع بناءٌ فخم من ثلاث طبقات بدون شرفات، كُتِبَ على مدخله بأنابيب مصابيح النيون الليلكية وبخطٍ كبير طوله ثلاثة أمتار بحيث يُرى من مسافة بعيدة: فندق پاراديسو.

اكتسب هذا الفندق شهرة واسعة وسمعة سيئة بسبب ما أشيع أنه ليس سوى دار بغاء يديرها رجل أعمال كبير، استثمر أمواله التي اكتسبها من تجارة المخدّرات في هذا الفندق الذي دَرَّ عليه أموالًا طائلة. وكان الفندق المبغى يضمُّ في أسفله حانة وملهى شهيرًا كانت تدار فيه حفلات قمار كبيرة، ويرفع مرتادوها الأنخاب المختلفة ويعقدون الصفقات السريعة، بينما تجلس بنات الهوى إلى الطاولات لاصطياد الزبائن وسَوْقهم بعد ثلاث كؤوس من المشروب الكحولي العالي التركيز إلى غرف الفندق الصغيرة في أعلى والمضاءة دائمًا بمصابيح حمراء باهتة، ونوافذ تنسدل عليها طوال اليوم ستائر رقيقة وردية اللون، بينما ازدانت الجدران بلوحاتٍ إيروتيكية لرسَّامين مجهولين.

شمال الفندق، وعلى مبعدة ثلاثمئة متر، كان هناك مبنى ضخم غير مكتمل البناء من طبقات عدّة تنتصب أمامه لوحة عملاقة مرسومٌ عليها مخطّط مستشفى عصري كبير، ومدوّنٌ بجانب المخطّط تاريخُ الانتهاء التقريبي من البناء مع صورة الحاكم المبتسم كدليل على أنّ صحة المواطنين تهمّ سيادته، وأنه يسهر على راحة الرعية، وأنّ المستشفى الذي يوشك بناؤه على الانتهاء ليس إلّا واحدًا من منجزاته التي لا تحصى.

قريبًا من المبغى، ذي الواجهة المضاءة بمصابيح النيون الليلكية، وإلى الجنوب الشرقي منه كان مركز الشرطة ببنائه الكئيب يرتفع عليه علم الدولة المهترئ الذي يرفرف بجنون حين تكون الريح عاصفةً فيبدو كأنما تسكنه روح دراجة نارية يقودها مراهق أرعن. وكثيرًا ما كان رجال الشرطة يقيمون دوريات راجلة بالقرب من المبغى للتدخّل عند الضرورة، خاصة بعد منتصف الليل حيث يصبح الخاسرون في القمار مسعورين، ويخرج السكارى وهم يشتمون بنات الليل وصاحبة الحانة، وهي عجوز متصابية تركت القوادة في أعلى ونزلت لتدير الحانة المزدحمة دائمًا.

أما جنوبًا، فقد انبسط عراءٌ فسيح يفصل مركز المدينة عن المقبرة التي تمتد طولًا جنوب المعبد في الشرق وحتى حدود الغابة الغربية. كانت شواهد القبور الرخامية تشير إلى تواريخ ولادات ووفيات متفاوتة، لا يعود أقدمها إلى أكثر من مئة عام. وذلك ما يشير إلى أنّ المدينة كانت مستحدثة وقد نشأت حول محطة القطار القديمة ثمّ توسّعت وهي لم تكن عريقة بأيّ حال.

دمَّر القصفُ الكثيفُ المقبرة الجنوبية أيضًا، فتطايرت القبور المبنية بالرخام النفيس في الهواء. ولا يعرف أحدٌ لماذا تركَّز القصف في نهاية المعارك على مقبرة لا تضمّ سوى أموات لا يقدرون على حمل السلاح! ربما لأنه لم يبقَ هناك أحياء

يموتون، فكان من الضروري أن يموت الأموات أيضًا في تلك الحرب الرهيبة. لفظت القبور أحشاءَها فانكشفت الهياكل العظمية وتناثرت العظام واختلطت بحيث لم يعد الموتى يعرفون أنفسهم. ولو تسنَّى للميت أن يجمع عظامه لاحتاج إلى وقت طويل حتى يعثر على جمجمته التي التصقت بعظام رقبة ميت آخر مثلًا، أو يسحب عظم حوضه من القفص الصدري المهشَّم في هيكل عظمي لامرأة، أو ينتزع مشط قدمه من جمجمة ميت كان بجواره... وهكذا!

لم يبقَ من هذه المقبرة في نهاية الأمر سوى شواهد الرخام المحطّمة. حتى أنّ حطام الشواهد قد تحوّل شظايا متناثرة، ولم تعد تدلّ على المدفونين تحت التراب ولا على تواريخ ميلادهم ووفاتهم بقدر ما صارت دليلًا حسيًّا يؤكّد نشوب حربٍ رهيبة قُتل فيها حتى الأموات، ولم ينجُ منها أحدٌ ليروي ما حدث وكيف ولماذا حدث.

في مركز المدينة وقلبها النابض قبل الحرب، كانت هناك ساحة التمثال، وهي الساحة الرئيسة في المدينة، وعقدة المواصلات التي تتفرّع عنها ثلاثة شوارع، كلُّ شارع منها بطول ثلاثة كيلومترات على شكل ثلاثة إشعاعات تصدر عن مركز الساحة وتذهب في كلّ اتجاه. في وسط تلك الساحة، كان ينتصب تمثال ضخم من البرونز بطول ثلاثة أمتار يُحيّي المارة وسائقي السيارات والحافلات، ويلاحقهم بوجهه المتجهّم الخالي من أي تعابير إنسانية سوى القسوة والألم في الوقت نفسه. كان تمثالَ شخص قاسٍ يتألّم ويثير الحيْرة لدى كلّ من يلقي عليه ولو مجرّد نظرة خاطفة.

قريبًا من ساحة التمثال ترادفت على كلّ جانب من مبنى البلدية الأصفر، محالُّ فخمة ومطاعم في مركز تجاري ضخم من ثلاث طبقات على مساحة واسعة، بحيث أصبح سطح الطابق الثالث مرأبًا للسيارات. وإلى جانب ذلك المركز التجاري، ارتفع بناء شاهق، وهو أعلى بناء في المدينة، من ثلاثة عشر طابقًا بواجهات زجاجية داكنة

اللون ازدحمت وراءها ابتداءً من الطابق الأول مكاتب حكومية وشركات تجارية ومكاتب محامين وما إلى ذلك. أما الطابق الأرضي، فقد كان سلسلة من المقاهي ومطاعم الوجبات السريعة ومحالّ لبيع الألبسة المستوردة والساعات والأحذية من الماركات العالمية. في الطابق السفلي الذي تهبط إليه عبر ثلاث عشرة درجة كانت ثمة مستودعات كثيرة يملكها أصحاب تلك المحالّ. وكان الهدوء يخيّم هناك لأنّ أصحابها نادرًا ما كانوا يحتاجون إلى البضائع المكدّسة في مستودعاتهم لوفرتها في أعلى.

في زاويةٍ مظلمةٍ من الطابق السفلي، أو قبو البناية، بحسب تسمية التجار وأصحاب المؤسّسات والمحالّ والفتيان الذين يعملون فيها، وقرْبَ المستودعات الموحشة، ظهرت مكتبة صغيرة، صاحبها كاتب عجوز أرمل، عُرِف بعكّازته القرمزية ذات المقبض الذهبي ونظارته الطبية الصغيرة ذات العدستين المدوّرتين وشاله الحريري الأحمر الذي يلفُّه على عنقه في جميع الفصول، وبدلته البيضاء التي يرتديها في جميع المناسبات. كان العجوز يعيش وحيدًا بعد أن ماتت زوجته وسافر أبناؤه وتفرّقوا في أرجاء الدنيا، مكتفيًا بما يكسبه من مكتبته المنسية في قبو البناية الضخمة.

قضى الكاتب العجوز حياته، منذ صدور روايته الأولى حين كان في الثالثة والثلاثين من العمر وحتى آخر رواية نشرها في خصومات مع الناشرين. ولما يئس من صلاح حال النشر في بلاده بدأ يطبع كتبه بنفسه. أما الجوائز الكبرى التي كان يسيل لها لعاب كلّ من كتب سطرين، فقد هجرها الكاتب العجوز وقاطعها نهائيًا بعد أن صعدت روايته الثالثة إلى القائمة المنافِسة لإحدى أعرق الجوائز. وقتذاك، علَّق آمالًا كبيرة على أن تصل روايته إلى المرحلة النهائية من المنافسة، خاصة أنّه عرف المستوى الضحل لثلاث من الروايات الموجودة مع روايته في القائمة. لكنّ المفاجأة كانت أنّ روايته استُبعدتْ من المنافسة النهائية، بينما صعدت عوضًا عنها رواية لا

تصلح حتى كمسوَّدة أوّلية يكتبها متدرّب ناشئ.

ولأنّ الكاتب العجوز كان على خصام مع المؤسّسات التي تنظّم الأنشطة الثقافية أيضًا، فقد صار يحيي بنفسه حفلات توقيعٍ خاصة يبيع من خلالها كتبه التي يروِّج لها بشكل لم يألفه زملاؤه الكتّاب، ويذهب بسيارته الصغيرة في رحلات دونكيخوتية إلى المدن والبلدات بعد الإعلان عن موعد حفلات التوقيع في الصحف والجرائد المحلّية وما تيسّر له من وسائل التواصل، حتى بات زملاؤه يسخرون من طريقته في ترويج نتاجاته، ويستهزئون بحقائب الكتب التي يجرّها وراءه إلى كلّ حفل توقيع.

لكنّ الأمور تغيّرت، فقد أصبحت الكتب الورقية نادرة التداول، وانكبَّ القرّاء على نسخ من الكتب الرقمية توفّرها الإنترنت بالمجان أو بشكل مقرصن، أو مقابل مبالغ أقل بكثير من أسعار الكتب الورقية، ولم يعد أحد يرتاد المكتبات أو حفلات التوقيع إلّا نادرًا. أصبحت المكتبات مثل أكشاك الهاتف الأرضي الموجودة على نواصي بعض شوارع المدن رموزًا تدلّ على حضارة غابرة كان البشر فيها يعيشون بإيقاع أبطأ وأكثر حميمية مما صاروا عليه الآن. وهكذا شعر الكاتب العجوز بفائض كبير من الوقت يقضيه في صومعته - كما صار يسمّي المكتبة الصغيرة - يطالع الروايات التي بقيت على الرفوف من دون أن يشتريها أحد. أصبح يغلق على نفسه باب المكتبة ويغرق في المطالعة حتى تغيب الشمس، فيخرج ويذهب إلى بيته ليعود في صباح اليوم التالي.

مرَّت أشهر على هذا المنوال، ثمّ لم يعد الكاتب العجوز يرغب في العودة إلى منزله الواقع في حيٍّ شعبي صغير يتوسّط حديقة البلدية والمعبد المثلّث، بل آثر أن يصرف كلّ وقته في الصومعة الصغيرة، ثمّ أحضر من بيته فراشًا بسيطًا مدةً في

مستودع صغير خلف المكتبة وصار ينام هناك.

لاحقًا، أصبحت المكتبة الصغيرة بيته النهائي، فلم يعد يغادرها بتاتًا. يطالع الروايات الجديدة الصادرة حديثًا ويعيد قراءة الروايات القديمة التي نسي أحداثها وأسماء أبطالها وموضوعاتها، ثمّ يعود إلى ترتيبها بحسب العناوين أحيانًا، وبحسب الترتيب الأبجدي لأسماء مؤلّفيها أحيانًا أخرى، فيضعها في رفوفها الثلاثة عشر. وحين يتعب من القراءة يذهب إلى المستودع لكي يتمدّد قليلًا، أو يستسلم لقيلولة منتصف النهار، فينام ثلاثين دقيقة ثمّ يفيق من نومه دون أن يوقظه منبّه خاص. وبعد ذلك يعود إلى المطالعة التي لا بُدَّ من أن يتخلّلها قليل من الطعام الجاهز وكأس كبيرة من مغلي النعناع الذي أدمن شربه مذ بدأت نوبات سعال تأتيه وتخرِّش قصبته الهوائية.

وقبل أن يحين موعد النوم بنصف ساعة، دأب الكاتب العجوز على أن يأخذ رواية من الروايات التي رتّبها أبجديًا، فيقرأها بصوت مرتفع تبديدًا لوحشة المكان الذي يُحكِم السكون قبضته عليه. في أثناء القراءة - وخاصة عندما كانت الحوارات تحتدم في متن الرواية - كان الكاتب العجوز يتسلل إلى النص فيجعل نفسه شخصية إضافية ويردّ على الشخصيات الموجودة في كلّ رواية، يحاورها، يناقشها في بعض الأفكار، يفنّد آراءها ويقهقه ساخرًا منها أو يهزُّ رأسه موافقًا على ما تقوله هذه الشخصية أو تلك. وكثيرًا ما كانت أحداث الرواية التي قرأها قبل النوم ترافقه إلى أحلامه، فيرى نفسه الراويَ العليم الذي يُطلّ من سماء الخيال على كلّ الشخصيات بما فيها هو نفسه، فيعيد ترتيب الأحداث وصياغة الحوارات كما كان ينبغي أن تكون بحسب رأيه. ظلّ العجوز على هذا المنوال إلى أن قدحت في ذهنه ذات يوم فكرة كتابة رواية يستدعي فيها أبطال بعض الروايات التي قرأها في خلال حياته وتلك التي قرأها في أثناء عزلته الأخيرة، فيستنطقهم، بل يدخل هو بنفسه إلى الرواية المرتقبة ليصبح إحدى شخصياتها المحرِّكة لأحداثها كما يحصل له في بعض الأحلام

أحيانًا. وكعادته، فقد احتار لأيام عدّة في عنوان مناسب يضعه لروايته الجديدة الغريبة هذه. قلَّب في ذهنه كثيرًا من العناوين. لم يعجبه أيٌّ منها. استقرّ أخيرًا على عنوان خطر على باله فجأة «الأُلْهِيَّة». وجد أنّ العنوان سيناسب مضمون الرواية، فما هي إلَّا لعبة يزجّي بها وقته ويدفع عن نفسه ملل الوحدة والشيخوخة ووحشة المكان.

وكثيرًا ما قارن نفسه ببطل رواية ميغيل دي ثيربانتس الشهيرة، الفارس دون كيخوته دي لا مانشا، الذي قضى أوقاتًا طويلة يقرأ قصص الفروسية حتى فقد عقله وقرّر أن يصبح فارسًا جوَّالًا يجوب الآفاق ليدافع عن المظلومين. كان الكاتب العجوز يعتبر أنّ في داخل كلٍّ منّا «دون كيخوته» صغيرًا، بل جزءًا من كلّ شخصية من شخصيات الروايات الشهيرة وحتى شخصيات الحيوان. نحن البشر شبكة معقّدة مركّبة من شخصيات متعدّدة متناقضة أحيانًا. الإنسان ليس كائنًا بسيطًا يا رفيق - قال هذا لأحد زملائه من الكتَّاب ذات أمسية أدبية قبل أن يعتزلهم ويعتزلها أيضًا - كلّ إنسان لوحةُ فسيفساءٍ من الشخصيات المختلفة والمتناقضة، والنبيه العاقل هو من يستطيع إبراز شخصيات الخير في روحه وسلوكه ويطمس الشخصيات الباقية ولا يفسح أمامها المجال لتطفو على السطح... قال لزميله ذاك في تلك الأمسية الأدبية.

ولأنّ الحروب تقتل الأحلام قبل الحالمين، فقد وجد صاحب المكتبة العجوز صعوبة كبيرة في البدء بكتابة تلك الرواية عقب نشوب الحرب ثمّ اقترابها من المدينة. لقد بلبلته الحرب وصدمته. ولكن مع ذلك، وبالرغم من جعجعة رحى الحرب ودويّ الانفجارات هنا وهناك حاول أن يبقى على هدوئه لكي لا يفقد تركيزه المعهود في مطالعة الروايات التي خطَّط لقراءتها من أجل كتابة روايته الغريبة. باتت الانفجارات بعد مضي حوالى ثلاثة وثلاثين يومًا من بدء المعركة قريبة جدًا من مركز المدينة، ممّا سبب للكاتب العجوز قلقًا كبيرًا، فبادر مضطرًا إلى ترك المطالعة ووضع الروايات الثلاثة عشر في رفوفها السابقة في انتظار أن ينتهي جنون الحرب

ويعود موقدو نارها إلى رشدهم.

لكنّ صاروخًا واحدًا كان كفيلًا بتدمير المبنى الكبير وحرقه بطبقاته الثلاث. لم يسلم من الحريق الهائل بالطبع أي شيء، أما الكاتب العجوز، فقد اختفى أثره منذ ذلك اليوم ولم يبق في المدينة من يبحث عنه أو يعثر عليه. طارت الكتب المحترقة في الفضاء مثل الغربان ثمّ تناثرت رمادًا أسود في كلّ مكان. لكن ما حدث بعد ذلك كان شبيهًا بحلم سريالي: خرج أبطال الروايات الثلاثة عشر الذين انتخبهم الكاتب العجوز من بين مئات الشخصيات لأجل أُلْهِيَّته الروائية واحدًا تلو الآخر من صفحات مسوَّدة الرواية التي كانوا محبوسين فيها، فهاموا على وجوههم في المدينة الموحِشة، ثمّ اجتمعوا في فندق پاراديسو المقفر ذي الأضواء الليلكية لينسجوا تفاصيل هذه القصة التي لطالما حلم الكاتب ذو العكّازة القرمزية والبدلة البيضاء بتدوينها.

2

كان الفارس دون كيخوته دي لا مانشا يجول على حصانه الشهير في ساعة الغروب على طرف الغابة الغربية المواجه للمدينة المدمَّرة حين شعر بأنّ قوائم الحصان تعثّرت بكائنٍ ممدّد على الأرض. كان ضوء النهار الذي ما يزال يقاوم العتمة كافيًا ليتبيّن للفارس الشهير أنّ الكائن ليس سوى حشرة ضخمة لم يرَ مثلها في كلّ المدن والقرى التي زارها مع تابعه الوفي سانشو بانثا.

وأوّل ما تبادر إلى ذهنه أنّ تهويماته التي صوّرت له أنّ طواحين الهواء شياطين شريرة يجب القضاء عليها، هي ذاتها التي تصوّر له الآن وأمام عينيه هذا الكائن الممدَّد أرضًا في شكل حشرة عملاقة.

- مهلًا يا عزيزي روسينانتي، مهلًا. سأنزل عن صهوتك لأكتشف سرَّ هذه الحشرة. لن أخاف لأنّ رمحي الشهير معي. وبأي حال، يبدو أنَّها حشرة ميتة عاجزة عن مواجهة فارس مغوار مثلي. أنا الذي لم أخف من كتيبة من الفرسان، فهل أخاف الآن من حشرة؟

وبقفزة واحدة صار الفارس دون كيخوته على الأرض وهو ما يزال يمسك بلجام حصانه. لم يضيّع ثانية واحدة من الوقت، بل قاد حصانه بضع خطوات إلى أمام، ثمّ عاد ليدقّق في جثة الحشرة العملاقة ويدور حولها بفضول.

- أُقسم يا سانشو لو خرجْتَ من الرواية أنت أيضًا ورأيتَ هذا المنظر لبلّلْتَ سروالك.

هذا ما قاله الفارس ذو الوجه الحزين محاولًا إخفاء ابتسامة نادرة في موقف لا يحتمل الابتسامات.

ولكي يكون هناك مبرّر لنزوله عن صهوة فرسه انحنى قليلًا وصار يدقّق في أثر جراح عميقة بآلة حادّة في صدر الحشرة الميتة.

وقبل أن ينهض رأى ما سبَّبَ له رعبًا هائلًا جعله يتجمّد في مكانه:

القائمتان عند البطن تختفيان. القشرة الكيتينية تتقصَّف ثمّ تزول. القوائم الأمامية والخلفية تتبدّل بشكل عجيب. الأجنحة تختفي. قرْنا الاستشعار يختفيان. أخيرًا، تحوّلت الحشرة العملاقة شابًا قتيلًا مع أثر الجراح التي ظلّت تنزف الدم، ممّا أكّد أنَّه تعرّض للطعن منذ لحظات.

- يا أمَّنا العذراء. يا جميع القدّيسين! ثلاث طعنات قاتلات!

صرخ دون كيخوته بهلعٍ وارتدَّ إلى خلف مسافة ثلاثة أمتار.

كانت الشمس قد غربت، وبدأ الظلام يزحف من بين جذوع الأشجار الكثيفة.

فجأة، ظهر من وراء شجرة كينا عملاقة متهدّلة الأغصان رجلٌ في ثياب عسكرية، يحمل بيده اليمنى فانوسًا يشقُّ بنوره الباهت ستائر الظلمة من أمامه.

- قف في مكانك. من أنت؟

صرخ دون كيخوته وهو يهزّ رمحه الطويل الذي ينتهي بسنانٍ صدئ منخور الحواف.

- أنا الضابط جيوڤاني دروغو. ومن أنت؟

- أنا الفارس دون كيخوته دي لا مانشا. لقد أرعبْتَني.

- دون كيخوته مرعوب؟ أمر لا يصدق.

- هل تعرفني؟

- ومن لا يعرفك أيّها الفارس المغوار! أين تابعك سانشو بانثا؟

- بقي في الرواية. الحياة أفضل بدون ذلك البدين الذي أفسد كلّ خططي.

- ها ها ها. الحياة مملّة يا صديقي. مملّة وسيئة. ولن تصبح أفضل سواء أَحضَر فيها بعض الأشخاص أم غابوا عنها. الحياة ليست سوى انتظار مملّ.

- انتظار ماذا؟

- انتظار اللاشيء الذي يظنه المرء كلّ شيء. الإنسان ينتظر ما يتخيّل أنّ حصوله وحدوثه، سيغيّر كلّ شيء.

- وهل تنتظر أنت شيئًا؟

- انتظرتُ التتار طويلًا في الرواية. أمضيت عمري أنتظرهم في حصن باستياني العسكري اللعين المطلّ على صحراء خالية لا تشبه سوى حيواتنا المملّة. لم يكن لحياتي معنى سوى انتظار التتار.

- وأنا أردت إحياء عصر الفروسية النبيل بكلّ صدق. ولو لم يكن عملي هو الصراع ضدّ أشرار هذا العالم لترسيخ العدالة لما كان لحياتي أي معنىً.

- لا معنى للحياة يا صديقي. يتوهم الإنسان عبثًا أنَّ هناك ما يمنح حياته معنىً. كيف سيضيف الانتظار المملّ الذي يزدرد عمرَك كله معنىً لشيء لا معنى له أصلًا! عبث في عبث.

- لا أفهم ما تقوله، لكن أخبرني: هل جاء هؤلاء الذين تسمّيهم التتار؟

- جاؤوا بعد فوات الأوان. جاؤوا بعد أن صرفت سنواتي كلها في انتظارهم عبثًا. انظر يا صديقي: المرء تقتله العادات. من يستسلم للعادة يمت وإن كان حيًا يأكل ويشرب وينام ويحب. أنا ضحية التعوّد.

- أنا إذن على على عكس ما أنت عليه يا صديقي. لقد قضيت عمري كله أتنقّل من مكان إلى آخر. فأنا لا أستطيع الإقامة في مكان واحد لليلتين متتاليتين. وهكذا قضيت على الحنين. الحنين إلى المكان ضعف.

- أيضًا من لا يغادر المكان لا يحنُّ إليه.

- ومع ذلك فالحركة أفضل من الثبات.

- لا فرق. في النهاية يموت ذئب جال في كلّ السهوب والبراري كما تموت نعجة عاشت حياتها في الحظيرة.

- أنت فيلسوف يا سيد دروغو.

- الانتظار المملّ يمنح حتى الحجارة حكمة عميقة. لكنها - آخر المطاف - لا فائدة ترجى منها.

فجأة، تحرّك بعض الظلال وراء جيوڤاني دروغو، فهبَّ دون كيخوته إلى حصانه يهزّ رمحه ويصيح:

- تقدّموا أيّها الفرسان. ستواجهون اليوم فارسًا صرع المئات ممَّن هم أقوى منكم!

ضحك جيوڤاني. أسرع إلى دون كيخوته، رفع الفانوس إلى وجهه وطلب منه النزول مؤكِّدًا له أنَّ ما رآه لم يكن سوى ظلال بعض الأشجار.

- لم تتغيّر عاداتك حتى بعد أن خرجْتَ من الرواية يا دون كيخوته.

- وهل تغيّرتَ أنت؟

- نعم. أنا منذ هذه الساعة لن أنتظر شيئًا، ولا يهمّني إن كان التتار سيجيؤون أم لا.

قفز دون كيخوته إلى الأرض، وأسرع إلى الجثة وهو يصيح:

- أووه. كيف نسيت أن أخبرك؟ هل رأيت هذا المنظر؟

- لا. من هذا؟ دعني أدقّق في ملامحه. أووه. شيء مرعب.

- المرعب ليس أننا أمام قتيل.

- ما هو إذن؟

- المرعب هو ما حدث قبل مجيئك بلحظات. لقد تعثّر حصاني العزيز روسينانتي بحشرة عملاقة ثمّ ما لبثتْ هذه الحشرة أن تحوّلت أمام عيني إلى هذا الشاب الذي تنزف جراحه الثلاثة.

- كافكا.

- ماذا قلت؟

- ما نراه أمامنا حسب وصفك هو غريغور سامسا. غريغور البائس الذي تحوّل حشرة في رواية فرانز كافكا الشهيرة. وها هو قد عاد إلى طبيعته بعد أن خرج هو أيضًا من الرواية.

- لا أفهم كلّ ما تقوله. المهم الآن، من قتله؟ من أصابه بهذه الجراح الغائرة التي ما تزال تنزف؟ بلا شك في أنّ الحادثة جرت قبل قليل. سأنتقم لهذا الشاب.

- هذا واضح يا صديقي. لكن دعنا منه ودعك من الانتقام. تعال لنذهب إلى

حانة قريبة.

- كيف نترك قتيلًا مضرّجًا بدمائه ونذهب إلى الحانة يا سيد دروغو؟ ليست هذه من أخلاق الفرسان.

- لا تنس أنك خارج الرواية الآن. أخلاقك في الرواية هي غيرها هنا يا عزيزي. هنا يسود منطق آخر مختلف كليًا. قُدْ حصانك واتبعني.

امتقع وجه دون كيخوته. أصبحت ملامحه أكثر حزنًا وصار يلتفت مع كلّ بضع خطوات إلى القتيل الذي تركاه عند الغابة وهو يفكّر بصوت مرتفع:

«غريغور سامسا! يا للشاب المسكين. آسف لأننا نتركك ونذهب حتى قبل أن ندفنك. من قتلك ولماذا؟ ولماذا حوَّلك ذلك الكاتب الذي نسيتُ اسمه إلى حشرة لعينة؟ ما أقساه مِنْ كاتب وما أتعس خياله! سأبحث عن قاتلك يا عزيزي. سأبحث عنه وأكتشفه وأقتصُّ لك منه. قسمًا بجراحك الثلاثة يا ابني سامسا. قسمًا بجميع القدّيسين».

واصل الاثنان مسيرهما بصمت، جيوڤاني دروغو الذي يحمل الفانوس يسير في المقدّمة وخلفه يسير دون كيخوته على حصانه الهزيل. مرّت ثلاث دقائق ثمّ ظهرت على بعد ثلاثمئة متر من الرجلين لوحة مضيئة بحروف بارزة كبيرة: فندق پاراديسو.

صرخ دون كيخوته: هذا فندق. يا للفخامة! أقسم لك بجميع القدّيسين أنني لم أشاهد في حياتي كلها فندقًا بهذه الضخامة في أي مكان. ولا حتى كتابة بهذا الجمال والأناقة. إنها بأحرف من نور. عجيب؟ حروف نورانية! لا بُدّ من أنّ هذا المكان مقدّس.

ردَّ عليه جيوڤاني:

- في هذا الفندق حانة لطيفة سنرتادها بعد قليل. تدير هذه الحانة عجوز متصابية، لكنها تعطف على الفقراء وتسقيهم أحيانًا بنصف القيمة أو حتى مجانًا.

- لن أشرب مجانًا. ولا بنصف القيمة.

- كيف تريد أن تدفع إذن؟

- قرضًا حسنًا. سأدفع فيما بعد ثمن ما أشرب... لا أملك نقودًا الآن.

- كما تشاء. دعنا نصل أولًا.

قبل الوصول شاهدا عجوزًا يجرُّ خلفه هيكلًا عظميًا لما يبدو أنه كان فيما مضى سمكة مرلين عظيمة.

صرخ دون كيخوته:

- القاتل. القاتل.

وحاول أن يقود حصانه إلى العجوز المرهق وهو يسدِّد رمحه لكنّ جيوڤاني أوقفه بحركة من يده وزعق فيه:

- لا تتهوّر يا صاحبي! هذا هو الصياد العجوز سانتياغو. أعرفه جيدًا. وهو يجرّ سمكته التي اصطادها ونهشتها أسماك القرش قبل أن يصل بها إلى الشاطئ.

- أنت تعرف كلّ الناس هنا.

- أعرفهم من الروايات. وهذا الصياد العجوز خرج من رواية الشيخ والبحر.

- ألهذا يرتدي قبعة البحّارة؟

- ربما.

- ولماذا يجرُّ خلفه هذا السمكة الميتة؟ هل سيبني متحفًا؟

- سنسأله.

بعد لحظات اقتربا من العجوز سانتياغو. حيَّاه جيوڤاني ثمّ أشار إلى دون كيخوته وقدّمه للعجوز مبتسمًا:

- هذا هو صديقي الفارس المغوار دون كيخوته دي لا مانشا.

رمى العجوز سانتياغو الحبل الذي ربط أحد طرفيه برمح السمكة الطويل وقال غامزًا:

- المجنون؟

- كلنا مجانين يا سانتياغو العزيز. لكن لكلّ واحد منّا طريقته الخاصة في الجنون.

- هل من الجنون أن أكافح أسماك القرش؟ هل من الجنون أن أعاند الأنواء وأصطاد بالرغم من اليأس وسخرية باقي الصيادين؟ ثمّ من أنت ومن أين تعرفني؟

- أنا الضابط الإيطالي جيوڤاني دروغو وأعرفك من سمكة المرلين، كلّ من يحبّ الروايات يعرفك. بالنسبة إلى أسئلتك الوجودية أقول: إنَّ صديقي دون كيخوته وأنا معروفون بما خضناه من صراع: هو صارع طواحين الهواء، وأنت صارعت أسماك القرش. أما أنا، فصارعت الأشباح في ذلك الحصن طوال ثلاثين عامًا. كلنا مجانين يا عزيزي سانتياغو. الإنسان كائن مجنون... كائن خُلق للصراع.

لم يعلّق سانتياغو الذي بدا الإرهاق واضحًا على وجهه المتغضّن، فيما بقي دون كيخوته مأخوذًا بالأضواء الجميلة التي تنبعث من أنابيب النيون على باب الفندق، وبدا كأنه لم يسمع ما دار بين جيوڤاني وسانتياغو من حوار قصير. وقبل أن

يصبح الثلاثة عند الباب، نزل دون كيخوته عن الحصان، أعاده خطوات إلى الوراء ثمّ ربطه بوتد وعاد ليسير مع رفيقيه حاملًا رمحه الطويل ذا السنان الحديدي الصدئ.

3

كانت الحانة صاخبة جدًا حين نزل إليها الثلاثة، جيوڤاني دروغو، دون كيخوته دي لا مانشا والعجوز سانتياغو. عَلِقَ رمحُ دون كيخوته الطويل عدة مرات بين دفَّتيْ الباب فلم يستطع الدخول، وكاد أن يعود أدراجه يأسًا لولا أنّ كهلًا على طاولة قريبة، كان يشرب وأمامه آلة السانتوري، راقبه ورأى حيرته فوضع الكأس ونهض إليه وهو يصيح:

- الفارس العظيم دون كيخوته دي لا مانشا! أهلًا وسهلًا بك في العالم الآخر.

- العالم الآخر؟

- هذا هو السيد زوربا. يرحِّب بك على طريقته. إنه يستوحي دعابته من اسم الفندق: پاراديسو. نحن الآن في الفردوس يا صاحبي. وهذا السيد المرح هو آليكسيس زوربا اليوناني: رجل كثير السكر والعربدة لكنه طيّب ولطيف.

قال جيوڤاني وهو يضع فانوسه على جانب الطاولة التي وجدها فارغة للتوِّ.

مدَّ زوربا يده، صافح دون كيخوته، ثمّ استلم منه الرمح وسحبه إلى داخل الحانة وهو ما يزال على نبرته السابقة في الصياح:

- تفضَّل يا أعظم فارس في التاريخ. تفضَّل. إنني أدعوك إلى كأس لذيذة ستنسيك تعب الخروج من الرواية. لقد سبقناك.

بعد برهة صمت خاطفة مشى قليلًا بصحبة دون كيخوته وهو يجرُّ الرمح

الطويل على الأرض ثمّ الْتفتَ وراءه ونادى:

- جيوڤاني! سانتياغو! تعالا أنتما أيضًا إلى طاولتي. أسرِعا. سأعرّفكما إلى مدام إيمّا. إيمّا بوڤاري، والليدي كونستانس تشاترلي. أجمل مخلوقتين في التاريخ.

ابتسم جيوڤاني وغمز العجوز سانتياغو الذي ظلّ يتأمّل الفارس دون كيخوته ولباسه الغريب من دون كلام.

كانت موسيقا جاز هادئة تنبعث من الحانة الصاخبة، بينما نشطت النادلات يرحن ويجئن بين الطاولات يوزِّعْن الشراب ويرفعن الصحون الفارغة ويرتِّبْن الكؤوس ويلاطفْن الزبائن الخارجين لتوِّهِمْ من الروايات.

ضرب زوربا بكفِّه على مؤخّرة نادلة سمراء ترتدي قميصًا أبيض بلا كمّين يبرز صدرها العارم وقال:

- ثلاثة كؤوس ريستينا. وبسرعة لو سمحْتِ، فالسادة يريدون سهرة لطيفة بعد عناء العيش في الروايات.

- وأنت؟

سأله جيوڤاني وهو يسحب كرسيًا ليجلس عليه. فردَّ عليه زوربا مقهقهًا:

- أنا لم أعش في رواية. لكنّ صديقي الكاتب المثقّف صاحب المنجم المنحوس، فأر الكتب الرئيس نيكوس - أو باسيل كما سمّى نفسه في كتابه - استدعاني إلى روايته واختطفني من حياتي الحقيقية التي عشتها. لا تصدّقوا ما كتبه في الرواية مِنْ أنني جئت إليه وتوسّلتُ أن يأخذني معه إلى المنجم. لا. العكس هو الصحيح، فقد ألحَّ عليَّ أن أرافقه لمَّا رآني بهذا المرح، أعزف السانتوري وأغنّي وأرقص وأشرب وأدخّن وأحدّثه عن النساء. الروائيون كذّابون يا أصدقاء. أو لأقلْ بصيغة أكثر تهذيبًا: إنهم يحبّون التمويه. ومع ذلك فقد كانت حياتي في الرواية لعبة جميلة ومغامرة

استثنائية استسغْتُها. وكم تمنّيت ألّا تنتهي الرواية. جميلٌ أن يرى الإنسان نفسه في رواية أو فيلم. الإنسان مولع بالمرايا التي تعكس وجهه. وها أنتم تخوضون التجربة.

قال جيوڤاني:

- نرسيس يتكرّر في كلّ قصة.

فاعترض زوربا:

- لكنني من لحم ودم ولي تاريخ ميلاد وقبر معروف. لست مثلكم كائنًا مجبولًا من طينة الخيال.

رد سانتياغو:

- وما الفرق يا زوربا؟ في النهاية سنعود جميعًا لنستوطن روايات أو نصبح سطورًا على شواهد القبور، أو في نعيٍ ينشره الوَرَثة في جرائد الإعلانات التافهة في أفضل الأحوال.

- الفرق يكمن في الخلود يا سيد سانتياغو.

قال زوربا ذلك في اللحظة التي ارتفع فيها صوتٌ نسائي لطيف:

- الخلود الحقيقي هو أن نعيش كما نهوى، أن نتمرَّد على ما هو مرسوم لنا، أن نتخطّى دوائر المجتمع الضيقة... لن تتاح لنا فرصة ثانية للعيش.

- هذه هي مدام بوڤاري.

قال زوربا بحماس وهو يشير إلى المرأة التي تكلّمتْ. ثمّ أشار إلى الأخرى وواصل بالنبرة الحماسية نفسها:

- أعرّفكم إليها وإلى صديقتي الأخرى الليدي تشاترلي. إنهما أعظم امرأتين في التاريخ.

سُمعت ضحكة ساخرة مجلجلة من طاولة قريبة. التفت الجميع صوب مصدر الضحكة. كان هناك شخص غريب الشكل يلاعب قطة سوداء طويلة الشعر. وحين عرف أنّ ضحكته لفتت انتباه الجميع قال:

- أنا إدريس. إدريس الجَبَلاوي. مضحكٌ حديث زوربا اليوناني عن التاريخ. يتحدّث صاحبكم كأنه هو ابن الجبلاوي وليس أنا. أنا موجود منذ ما قبل التاريخ وحتى هذه اللحظة التي تعيشونها خارج التاريخ، ولا أرى شيئًا في هاتين المرأتين يجعلهما أعظم أو أجمل امرأتين في التاريخ. ابتعدوا عن هذه المبالغات المفرطة يا بني أدهم.

في هذه الأثناء خفتت الموسيقا الهادئة حتى صمتت الميكروفونات نهائيًا، وأضاء بعض المصابيح الكاشفة المنصةَ التي صعد إليها - وبهدوء تامٍ - رجلٌ عجوز ببدلة بيضاء، يلفّ على عنقه شالًا حريريًا أحمر. سكت العجوز وهو يقف بقامته الفارعة، وأخذ يتأمّل وجوه الحاضرات والحاضرين من وراء نظّارته الطبية المستديرة العدستين. وحين آنس من جانب الحضور صمتًا واهتمامًا اعتبر ذلك تخويلًا منهم يمنحه حقّ الكلام فانبرى يقول بهدوء:

«أيّتها السيدتان وأيّها السادة، بطلات وأبطال الروايات الخالدة. أهلًا بكم في عالمكم الجديد. هذا العالم الذي بنيته بعد أن تعمّقت في دراسة شخصياتكم بعلاقاتها المتشابكة وبناها النفسية وسلوكياتها المعبّرة عن ذوات محطّمة أو متمرّدة: ذواتٍ رسم لها القدر مسارًا محدّدًا فاختارت آخر مختلفًا، ذوات كافحت في سبيل قناعاتها وضحَّتْ بالكثير من أجل أن تعيش كما تريد هاربة من قوانين البشر والآلهة، لكنها وقعت ضحية أقدارها التي سحقتها، فعانت ما عانته من دون أن تعرف سبيلًا إلى

الخلاص.

لقد أتحتُ لكم فرصة الخروج من هذه السجون الورقية لتتعارفوا من جهة، ولكي أرى كيف ستمضي بكم سفينة السرد في بحر الخيال المطلق من جهة أخرى. لقد آن لكم أن تخرجوا إلى النور من جديد لتجتمعوا وتتشاركوا حياةً مغايرة لكل ما عشتموه.. ارموا أقنعتكم التي حجب الروائيون الأنذال وجوهكم وراءها. إنّ ما سأقوم به هنا لعبة ميتاسردية. وأنا على يقين من أنكم ستستمتعون كثيرًا وأنتم تمثّلون فيها أدواركم الجديدة. وستفاجئ هذه الأدوار الجديدة الصادمة القرّاء الذين بنوا تصوّراتهم عنكم من خلال حياتكم في السجون الورقية التي حرّرْتُكم منها اليوم. إنَّها قيامتكم أيّها الأفاضل وأيّتها الفاضلات. سنرى كيف تعيشون إنْ تجاوَزْتم، أنتم الذين خلقَتْكم آلهة مختلفة ونثرتكم على جغرافيات خيالية متباعدة. سنرى كيف ستتصرّفون إن نفيناكم من بيئاتكم المعهودة وانتزعناكم من حواضنكم الورقية الدافئة لنحشركم هنا! لقد أتيت بكم من مواطن مختلفة لأبني لكم وطنًا جديدًا ستفتخرون بالانتماء إليه حتمًا».

التفتَ إليه الجميع بفضول. لم يفهموا كثيرًا ذلك الحديث الغريب لكنهم أبدوا اهتمامًا كبيرًا بحديث العجوز وأظهروا رغبة في الإصغاء إليه. استغلّ الكاتب العجوز ذلك الاهتمام الذي ظهر بوضوح على جميع الوجوه فقال:

«والآن أيّها الحضور اللطيف سأقيم بينكم حفل تعارفٍ مبدئيًا:

«أنتم أيّها السادة وأيّتها السيدتان ثلاثة عشر شخصًا، وقد اخترتكم بعناية تامة من بين مئات الأشخاص، ومنحْتُكم فرصة جديدة للظهور في رواية الأُلْهيَّة لأجل الحديث إلى الناس وخلق حوارات جديدة وعالم جديد تؤسّسونه أنتم معًا كما تشاؤون.

على الطاولة الأولى يجلس السيد آلكسيس زوربا اليوناني اللطيف مع مدام إيمّا بوڤاري الفرنسية الفاتنة والليدي كونستانس تشاترلي الإنكليزية المثيرة. من هناك أيضًا؟ آه لقد انضمَّ إلى طاولة السيد زوربا الفارسُ الإسباني الشهير دون كيخوته دي

لا مانشا، والصياد الكوبي العجوز سانتياغو الذي كما وصفه همنغواي كلّ شيء فيه عجوز إلَّا عيناه. ستعاينون ذلك بأنفسكم. ومَنْ أيضًا؟ أوه...! ها هو الضابط الإيطالي الصبور جيوڤاني دروغو. طاولة عامرة، زبائنها هم فعلًا من العيار الثقيل. دعونا نصفّق لهؤلاء الستة أولًا».

صفَّق الحاضرون جميعًا. استهوتهم الأُلْهيَّة فعلًا كما توقّع الكاتب العجوز. انخرطوا فيها ينتظرون ماذا ستتفتّق عنه عبقرية صاحب المكتبة ذي البدلة الثلجية البيضاء والعكّازة القرمزية ذات المقبض الذهبي! بعد أن هدأت موجة التصفيق رفع العجوز بظهر أصبع السبابة نظّارتَه ذات العدستين المستديرتين والإطار المعدني الدقيق عن أرنبة أنفه، بعد أن كانت النظّارة قد انزلقت عنه بفعل الخطاب الحماسي، فواصل العجوز خطابه بحماسة أكبر:

«الطاولة الثانية أيّها الحضور الرائع اختارها السيدان إدريس الجبلاوي وقابيل. لن أشير إلى هُويّتهما القومية، فهما من الشخصيات فوق الهُويَّاتية. إنهما شخصيتان عابرتان للأوطان والأزمان والهُويّات. وهنا أنتهزُ الفرصة لأخبركم بصدق أنه كان بإمكاني بل كان في نيّتي أن آتي بشخصية قابيل من رواية المصري نجيب محفوظ، لكنّ الاسم الذي حوَّره محفوظ، أي قَدْري، لم يرقْني. إن قَدْري اسم مستحدثٌ لا يناسب محنة قابيل التوراتي، بالإضافة إلى أنه يحيل إلى هوية محدّدة بعينها، وهذا ما لا يحتمله شخص عظيم مثل السيد قابيل. أما اسم إدريس، فهو تحوير بديع وناجح لشخصية إبليس التي غيَّرها الخيال الديني. هذا الاسم الذي نحته الكاتب المصري هو الأقرب لشخصية هذا الملاك الرجيم صاحب العلم الغزير، وهو بلا شك أكثر دقّة من اسم إبليس الذي لا يدل إلَّا على الطرد من ملكوت السماء أو اليأس من عفو السيد الأعظم، وهو يأس لا أظنه نال من صاحبنا.

لقد كان خوسيه ساراماغو - أيّها السادة - موفقًا جدًا في تشريح شخصية قابيل

الذي لا تقلُّ محنته ومأساته عن محنة عمّه إدريس في «أولاد حارتنا». لكن دعونا الآن من شخصيات الروايات وأسلوب بنائها. ما يهمّنا الآن هو أنتم. الشخصيات المحترمة التي حرّرتُها من سجونها وأعدْتُ بناءها ورممتُها من جديد، وأتيتُ بها إلى هذه المملكة الخيالية العجيبة. صفقوا رجاءً لصديقيكم».

سُمع تصفيق باهت من الحضور. لم تلقَ هاتان الشخصيتان أي احتفاء يناسب مقاميهما الخطيرين، لكنّ زوربا نهض وصفّق بحماسة شديدة وهو يصيح باليونانية: «كاليميرا كاليميرا»... مرحّبًا بهما.

وبالرغم من الاستقبال الباهت من لَدُن الحضور لتقديم إدريس وقابيل فقد بقي العجوز يخطب بالوتيرة الحماسيّة نفسها واستمرّ في تقديم النزلاء:

«أما الطاولة الثالثة، فتضمّ خمسة أشخاص. وهذه الطاولة أيّها السادة مهمّة جدًا وخطيرة. لا أقول هذا لأنني أستخفُّ بالجالسين على الطاولتين الأولى والثانية بل لأحذِّركم. وأنتم أحرار بعد تحذيري في طريقة تعاملكم مع أصحاب هذه الطاولة.

اسمحوا لي أن أقدِّم لكم أولًا السيد روديون رومانوفيتش راسكولنيكوف، الروسي العملاق. ثمّ السيد يوهان موريتز، الروماني المكافح، فالسيد الفرنسي دوناسيان ألفونس فرانسوا أو الماركيز دو ساد الرهيب ثمّ الراهب، اليافع آدسو البنديكتي، المنحدر بأصله من بلدة دي ميلك على الضفة الجنوبية من نهر الدانوب القريبة من فيينا. وأخيرًا سيداتي وسادتي: أقدّم لكم العامل التشيكي الشاب البائس غريغور سامسا الذي لن ينسى الناس ما فعل به كافكا، والأصحّ أنهم لن ينسوا ما فعل به النظام الاقتصادي الجائر. إنَّه لم يصل إلى القطار في موعده، وبقي يتقلّب في فراشه مرعوبًا مما وصلت إليه حاله، لكنه وصل إلينا بدون تأخير. فلنصفّق لهؤلاء أيضًا. وهكذا أيّها الحضور الكريم فإنّ عدد المحتفى بهم في لعبتنا الروائية هذه يكون قد اكتمل، وهو كما أسلفْتُ ثلاثة عشر شخصية منتقاة بعناية».

علا صدى تصفيق حاد شارك فيه الكاتب العجوز نفسه. كان متحمّسًا جدًا لهذه المغامرة التي بدأها بفكرة بسيطة. فكرة راودته حين عزل نفسه عن الناس قبل دمار المدينة، فانكبَّ على الروايات التي علاها الغبار في مكتبته يقرأها بنهم شديد وشهية بالغة. كانت الفكرة بسيطة فعلًا مفادها ماذا سيحدث لو جمعنا شخصيات بعض الروايات في رواية واحدة لنبني عالمًا مختلفًا؟ كيف ستبدو الشخصيات حين تتّخذ أوضاعًا خارجة عن مألوفها؟ وأيّ حكمة ستحملها الحوارات الجديدة لكلّ هؤلاء الأبطال الذين نقش الروائيون الحاذقون صورهم في المخيّلة البشرية بحيث أصبحوا قريبين من الشخصيات الحقيقية، يستشهد الناس بأقوالهم ويقلّدون تصرّفاتهم وينحتون لهم التماثيل ويصوّرونهم في اللوحات، بل يحلّل علماء النفس سلوكهم وعباراتهم كما لو كانوا بشرًا حقيقيين. وأكثر من ذلك يُقدِم النقّاد على شرح كلّ كلمة من كلماتهم وتأويلها. لا شكّ في أنّ الأمر سيكون مثيرًا باجتماع العمالقة في رواية واحدة بدل تفرّقهم على روايات مختلفة، وهذا ما أقدم عليه بالفعل صاحب المكتبة العجوز في الحانة أسفل فندق پاراديسو في المدينة المدمّرة.

حين انتهى التصفيق نهض الفتى اليافع آدسو البنديكتي، الذي كان يجلس بجوار يوهان موريتز وقال:

- أنا آدسو دي ميلك البنديكتي، تلميذ المحقّق الشهير الراهب الحكيم ويليام الباسكرڤيلي. نحن أربعة أيّها السيد. والذين ذكرت أسماءهم خمسة. شخص ما غائب عن طاولتنا.

- وأنا الماركيز الباريسي دو ساد.

وقبل أن ينهض الشخصان الثالث والرابع قام دون كيخوته من مكانه وقال بثقة تامة:

- الغائب هو غريغور سامسا. لقد وجدته مقتولًا عند حدود الغابة الغربية. السيد

دروغو يشهد على كلامي. بل هو الذي عرَّفني إليه.

حدّق الفتى آدسو في عيون الحاضرين وملامح وجوههم، فلاحظ ارتباكًا واضحًا على الماركيز دو ساد، بينما ساد الهرج واختلطت الهمهمات قبل أن يصيح جيوڤاني دروغو بنبرة عسكرية:

- نعم صحيح... لقد رأينا قتيلًا في الغابة. كان مطعونًا ثلاث طعنات بآلة حادة.

- لكنك قلت لي إنّ غريغور سامسا كان مجرّد حشرة في الرواية. بينما القتيل الذي رأيناه كان شخصًا عاديًا.

- هذا يخالف بالطبع ما رسَمتْه رواية كافكا لشخصية سامسا الغريبة. لكنني أتيتُ به إلى هذه الأُلْهيَّة لأعيده إلى طبيعته. هذه لعبتي. للأسف فقد مات قبل أن يلعب دورًا في روايتي.

ردَّ الكاتب العجوز وهو يستند بكلتا يديه على عكّازته الجميلة. راقب بصمت وجوه الحاضرين وتغيّرات ملامحهم مع كلّ كلمة.

عاد اللغط من جديد، بينما بدأت السيدتان تشاترلي وبوڤاري ترسمان صلبانًا كثيرة وتتمتمان بذعر بعد سماعهما ما قاله جيوڤاني ودون كيخوته.

رأى صاحب المكتبة العجوز أنّ الأمور قد تأخذ منحى آخر مختلفًا عما يخطِّط له، ولكي يترك الأحداث تجري وفق منطقها الروائي فقد طلب من الحضور الإصغاء إليه، فامتثل الجميع لأمره. وهكذا نهض ليخطب قائلًا:

«أيّها السادة الذين أعلنْتُ قيامتكم وبعثكم من مراقدكم الورقية،

أعلم أنّ هذا الخبر الذي سمعناه قبل لحظات مروّع. لكننا لسنا متأكّدين من أنّ القتيل هو الشاب غريغور سامسا فعلًا. لقد رأيته صباح اليوم يخرج من الرواية

بشكله الذي عهدناه كقرّاء، أي بشكل حشرة عملاقة تتحرّك ببطء. لكنني قلت في نفسي إنّ سامسا يستحقّ الحضور في هذه الرواية بهيئته الآدمية. ومع أنَّني واثق من أنّ القتيل ليس أحد الأبطال الذين استدعيتُهم من الروايات، وأنَّه بالتالي ليس غريغور سامسا، فإنَّني سأترك أمر مقتله الآن. أنا واثق من أنّ التشيكي سامسا سينضمُّ إليكم قريبًا. هذه الليلة على أبعد تقدير.

أما الآن فأرجو أن تتوزّعوا على غرف الفندق بحسب وجودكم على الطاولات. أنتم الذين تتحلّقون حول الطاولة الأولى، تصعدون إلى الطابق الأوّل لتتوزَّعوا على الغرف بمعدّل شخص واحد في كلّ غرفة. الطاولة الثانية، أقصد إدريس وقابيل إلى الطابق الثاني، وربما ينضمُّ إليهما لاحقًا غريغور سامسا، أمَّا من على الطاولة الثالثة، أي الماركيز دو ساد وأصحابه الثلاثة، فإلى الطابق الثالث. أودُّ أن أخبركم أيضًا أنّ في كلّ غرفة خزانة ثياب وأحذية، فاختاروا منها ما تشاؤون لتخرجوا من هيئتكم التي حبسكم فيها الروائيون وحتى مخرجو الأفلام وتصبحوا في حُلَّةٍ جديدة. لكن إذا شئتم البقاء في هيئاتكم السابقة، فلا مانع من ذلك. أنتم أحرار. لستُ كاتبًا مستبدًّا. أما موضوع قتيل الغابة، فسنصل بكلّ تأكيد إلى خيوط توضح لنا هذه الجريمة. لا تقلقوا أرجوكم.

وقبل أن أنسى، يجب أن أخبركم نقطة هامة أيضًا: لقد استلمْتُ إدارة الحانة من امرأة عجوز كانت تشرف عليها. لأقلْ بعبارة أدق إنني استأجرتها لغرض عرض لعبتي هذه التي أشركْتكم فيها. أما النادلات، فسيختفين اعتبارًا من هذه اللحظة. لن يزاحمكم أيّ مخلوق آخر في فضاء هذه الأُلْهيَّة. لست بحاجة أصلًا إلى شخصيات ثانوية. هذه الرواية رواية أبطال. شخصياتها أبطال مشهورون جدًا وكلهم على اطّلاع واسع بتقنيات السرد. لا كومبارس في أُلْهيَّتي الكبرى هذه.

والآن، أتمنّى لكم إقامة طيبة وأراكم لاحقًا».

4

في اليوم التالي، صباحًا، التأم في بهو الفندق الفسيح شملُ الشخصيات الخارجة من الروايات باستثناء غريغور سامسا. اجتمع الأبطال حول طاولة كبيرة وبدأوا يثرثرون بدون أن يجمع خرز ثرثراتهم سلكٌ ما.

ظهر جليًا أنّ المجتمعين لم يبدّلوا ثيابهم على عكس ما اقترح عليهم الكاتب العجوز أمس. فقد كان الصياد الكوبي العجوز سانتياغو - صاحب العينين اللتين لا تعترفان بالهزيمة - ما يزال مرتديًا قميصه المرقّع الشبيه بشراع زورقه المتهالك وتفوح منه رائحة سمك السردين. وكانت يداه ملفوفتين بشاش طبِّي بسبب ما عاناه من قروح حفرتْها الحبال التي ما انفكّ يشدُّها على مدى ساعات طويلة صعبة وهو يجرّ سمكته العملاقة إلى الشاطئ. أما زوربا، فقد جاء بثيابه الخفيفة التي كان يرتديها على شواطئ جزيرة كريت حين كان يرقص بجنون مع الرئيس وربطة العنق الرفيعة تتدلّى على قميصه البحري الخفيف. ظهر شعر صدره الأشيب من وراء زرَّيْن مفتوحين عند الصدر، وهو يدخّن بشراهة ويلفّ بذراعه عنق الليدي تشاترلي ويتكلَّم كلامًا نصف مفهوم بسبب السيجارة المشتعلة التي لم تغادر شفتيه أثناء الحديث.

وهكذا بقي الجميع مرتدين ثيابهم التي وصفها الروائيون في مداخل رواياتهم ببعض التفصيل أحيانًا لتقريب صور شخصياتهم الأساسية إلى ذهن القرّاء، تلك العادة التي اختفت تقريبًا، إذ لم يعد الروائيون يهتمّون بمظهر الشخصية بقدر ما صاروا يهتمّون بسلوكها وأعماق نفسها وتتبُّع المناطق الأشدّ هشاشة أو قوة فيها، وكذلك

صاروا يهتمّون أكثر بأساليب سرد الأحداث وتقنيات أخرى كثيرة قوّضتْ مفهوم الرواية الكلاسيكي.

استمرّت الثرثرة واللغط والقهقهات والهمهمة إلى أن دخل الكاتب العجوز يتوكّأ على عصاه الأنيقة اللامعة ذات اللون القرمزي والمقبض الذهبي الذي على شكل رأس نسر. وحين دنا أكثر وصار بالقرب منهم حيَّاهم بلطف ثمّ قال بأسى:

«أيّها الضيوف الكرام - كما تعلمون - تحدّثنا أمس عن قضية غياب الشاب غريغور سامسا، ووعدتكم - بناءً على تخميناتي- أنه سيلتحق بكم في أقرب وقت لكنه لم يظهر إلى الآن. وهذا بالطبع مؤشّر خطير وإفساد للخطّة التي وضعتها. إذ كان يجب أن تكون كلّ الشخصيات موجودة في الفصل الأول الذي سأسمّيه القيامة. إنّ غياب السيد سامسا أمر مُقلق للغاية ويثير الشبهات. وعلينا الآن أن نأخذ كلام الفارس السيد دون كيخوته دي لا مانشا بجدّية تامة. فإذا كان سامسا مقتولًا بالفعل فهذا يعني....».

نهض الفتى آدسو البنديكتي بسرعة، نزع قلنسوته المخيّطة بردائه البني الفاتح وقال بثقة تامة مقاطعًا كلام الكاتب العجوز:

- هذا يعني يا سيدي أنّ هناك قاتلًا بيننا. أو على الأقل يعني أنّ هناك قاتلًا في الجوار. وليس من المستبعد أن يكون قاتلًا متسلسلًا. لا نعلم مَن التالي غدًا. لذلك يجب كشفه بسرعة.

- وكيف تعرف ذلك أيّها الصبي الحصيف؟

سأل زوربا بنبرة استهزاء. ردّ آدسو:

- أستاذي الكبير الراهب الفرانسيسكاني ويليام الباسكرڤيلي علّمني أصول البحث الجنائي.

قال جيوڤاني دروغو بقليل من السخط:

- ولماذا تسمّيه ويليام بينما هو غوليلمو؟ لماذا تحرِّف الاسم الإيطالي أيّها الشاب؟

- مجرّد اختلاف في اللفظ بين اللغات. لا أشير إلى شخصية أخرى. هو إنكليزي بأي حال. والمهم في الأمر أنني عشت معه أيامًا رهيبة في ذلك الدير شمال إيطاليا والذي من الأفضل ألَّا أذكر اسمه.

- لكننا لسنا في دير. بأي حال، يبدو أننا بدأنا بداية سيئة في هذه الرواية التي أقحمَنا فيها هذا الرجل.

ردَّ زوربا بامتعاض ثمّ أنزل ذراعه التي كان يلفُّ بها عنق الليدي تشاترلي وجعلها تنزلق بهدوء على ظهرها نصف العاري حتى منتصفه. وبعد أن حرَّر ذراعه القوية، أي بعد أن حرَّر عنق الليدي الناعمة من ذراعه، أطفأ سيجارته التي وصل الحريق إلى عقبها بعد أن استنفد كلّ التبغ الموجود في اللفافة البيضاء. وضع زوربا العقب المنطفئ في منفضة زجاجية كبيرة كانت أمامه على الطاولة بجانب مزهرية فيها زهرتان بلاستيكيتان وبدا الجدّ في ملامح وجهه أيضًا.

في أثناء هذا الحوار القصير بين آدسو وزوربا وجيوڤاني، كان الرجل العجوز يتمعَّن في الوجوه الصامتة التي تتبدّل ملامحها عند كلّ كلمة يتفوهَّ بها هو أو زوربا أو آدسو أو جيوڤاني. صار يصعِّد النظرَ في العيون التي تفصح عن مشاعر أصحابها من حيرةٍ ودهشة وخوف يحاول أن يستنبط منها ردَّ فعل كلّ شخصية على موضوع اختفاء غريغور سامسا. ولم ينسَ بالطبع أن يتمعَّن في عيون المتحاورين الثلاثة:

- العيون نوافذ الروح المشرّعة دائمًا وبوابات النفس التي لا تُغلَق أبدًا.

همس العجوز لنفسه وهو ينظر في عيني الماركيز دو ساد اللامعتين وقد

انعكس فيهما ضوء وحشي جادَ به نهار ذلك اليوم.

بعد صمتٍ لم يطل، خاطب العجوزُ المجتمعين في بهو الفندق قائلًا:

فلنذهب أيّتها السيدتان وأيّها السادة إلى مكان الجريمة. لنعاين هذه الحادثة ونتأكّد ما إذا كان القتيل فعلًا هو الشاب غريغور سامسا أم غيره. هيا بنا. لقد أقلقني غيابه فعلًا.

شهقت الليدي تشاترلي ومدام بوڤاري بصوت واحد، وبقي فم كلّ واحدة منهما مفتوحًا عدة ثوانٍ، ثمّ قالتا بصوت واحد ونبرة ترنيمة كنسية:

- O Marie, mère de Jésus!

قال الكاتب العجوز:

- اطمئِنَّا أيّتها السيدتان. سيسبقنا السيد دون كيخوته بحصانه إلى هناك ويغطّي الجثة حتى لا يفزعكما المنظر.

- الفرنسيات! ها ها ها.

قهقه زوربا ثمّ صار يطمئن السيدتين الفرنسيتين المرعوبتين. لم تكفّ مدام بوڤاري والليدي تشاترلي عن رسم الصلبان على صدريهما العامرين، بينما انطلق الفارس دون كيخوته يعدو بحصانه صوب الجثة بعد أن أعطاه الكاتب العجوز ملاءة يغطّيه بها.

* * *

وصل الكاتب العجوز، يتوكّأ على عكّازته القرمزيّة الجميلة، بصحبة إحدى عشرة شخصية إلى المكان الذي حدّده جيوڤاني دروغو. وكان دون كيخوته قد سبق هذه الشخصيّات على حصانه، فرأوه من بعيد يدور حول بقعة خالية لا يبارحها.

ناداه جيوڤاني وهو على بعد ثلاثمئة متر تقريبًا:

- لماذا لا تنزل؟ عليك أن تغطِّي الجثة بالملاءة التي معك.

صرخ دون كيخوته بحيْرة:

- ليس هناك من جثة يا عزيزي السيد دروغو. هل أغطّي الهواء!؟ تعال وعاين بنفسك.

وصل الجميع ووقفوا في المكان الذي أشار إليه جيوڤاني وأقسم أنه شاهد الجثة هناك. وأيَّدهُ دون كيخوته في ذلك بهزّات من رأسه. ظهرت الحيْرة على كلّ الوجوه بينما لعب الخوف بملامح وجهَيْ الليدي تشاترلي ومدام بوڤاري على هواه. اقترب منهما إدريس الجبلاوي وربَّتَ على كتفيهما العاريتين بالتناوب وهو يقول:

- ابن أدهم قاتل.

شَمَّتْ الليدي تشاترلي عبقًا مثيرًا فاح من رقبة إدريس، فاقتربت منه حتى كادت تلصق صدرها بظهره ومدّت ذراعيها تريد أن تحضنه من خلف. دار إدريس نصف دورة ليقف قبالتها وينظر بازدراء إلى لحم صدرها الأبيض الذي زيّنته ثلاث شامات بنية داكنة متفرّقة هنا وهناك.

بعد ثوانٍ قليلة، ابتعد إدريس مبتسمًا بسخرية وهو يتمتم:

- تريدين إغوائي في مكان شهد حادثة قتل؟ بنات حواء!

اندفع قابيل وهو يضع يده اليمنى على جبينه كمن يعاني من صداع، ركض من بين الجمع المتحلّق حول مكان الحادثة المفترضة وجاء ليقابل إدريس بوجه غاضب:

- سمعتك تتحدّث عن أمي. ما الأمر؟

- أمك؟

- نعم أمي.

- حواء أمك؟ يا لخيبتك.

- أنا قابيل يا إدريس. أظنّك تعرفني!

- سمعت اسمك البارحة يردّده هذا الكاتب العجوز. لكنني لم أصدّق أنه يقصد قَدْري ابن أخي الأصغر أدهم. من يدري ربما أنت القاتل. لك خبرة في تهشيم الرؤوس يا أوّل القتلة. ارفع يدك عن جبهتك لنرى ما تخفيه.

- لا أخفي شيئًا، والقاتل الحقيقي هو من يوسوس للناس ويحرّضهم على القتل.

- تقصدني أنا؟

- نعم يا إدريس. ومن غيرك إذن؟ تاريخك معروف. مدوَّن في كتب السيد الأعظم المقدّسة. كلّ الأديان متّفقة على أنك منبع الشرور والمحرّض على الآثام.

ضحك إدريس. ابتعدَ قليلًا وصعد صخرة ترتفع عن الأرض الموحلة بقدر ثلاثة أذرع كانت هناك. نظر إليه الجميع صامتين وكأنهم نسوا أمر الجثة فانتظروا ما الذي سيقوله. تقدّم راسكولنيكوف وهو يعرج قليلًا حتى وقف أسفل قدمَيْ إدريس الواقف على الصخرة وصار ينتظر مع الآخرين ما سيقوله. لم يطل انتظارهم. صدح صوت إدريس الجبلاوي مجلجلًا:

«أرجو أن تسمعوني أيّها الأصحاب بعقولكم. لقد جمعتنا صحبةٌ غريبة أجبرنا عليها ذلك العجوز صاحب البدلة البيضاء والعكّازة القرمزية ذات المقبض الذهبي الواقف هناك منذ البارحة. ولا أعلم كم سنبقى هنا. ربما صاحبنا العجوز يعرف ويقرّر. لكن عندي كلمتان أود وأرجو أن تسمعوهما مني. لقد بدأنا يومنا الأوّل بفقدان

واحد منّا هو الشاب غريغور سامسا، التشيكي المسكين الذي لا يعلم أحد لماذا حلّت به اللعنة وحوّلته الأقدار حشرة مخيفة. لم تتسنَّ لنا فرصة التكلّم معه ليشرح لنا ملابسات تحوّلاته الغريبة هنا وهناك. أودّ أن أقول في خطبتي القصيرة هذه إنكم يا بني أدهم تعلّقون كلّ جرائمكم على كائن لا يهتمّ بكم وبمشكلاتكم أصلًا. أنا إدريس الجبلاوي مخلوق مختلف عنكم واهتماماتي لا تشبه اهتماماتكم ولا اهتمامات مؤلّفكم الأكبر. وبالرغم من أنني من أولاد الحارة إلّا أنّ لي عالمي الخاص، ومن المخجل أن أتنازل لأوسوس مثلًا لفتى صعلوك في قرية نائية أن يسرق دجاجة أرملة عجوز. أو أن أفسد صلاة أحدكم بوسوسة خبيثة خفيفة. لو عرفتموني على حقيقتي لنزَّهتموني عن هذه الأعمال الخسيسة لأنها بكلّ بساطة لا تناسبني أيّتها السيدتان وأيّها السادة. ابن النار الذي وقف وجهًا لوجه أمام الخالق الأعظم وناقشه بجرأة في أمر عدم ضرورة خلقكم بينما كان زملاؤه خاشعين مطأطئي رؤوسهم، لا يتنازل لصغائر الأمور مع أبناء الطين. ائتوني بدليلٍ واحد على أنني أنا الذي آمركم بالقتل والسرقة والزنا والكفر وسائر الموبقات حتى أصدّق محاججاتكم أمام الدَيَّان. هل رآني أحد منكم بجانبه حين يهمّ بفعل سيء؟ أُحلِّفك بما هو مقدّس عندك يا قابيل. أُحلِّفك بحليب حواء الذي رضعته مثل أخيك القتيل هابيل، قل الحقيقة ولا تراوغ. لا تلوِ عنق الحقيقة فتقول إنّ وسوستي هي التي تزيّن للناس سوء فِعالهم لأنّ هذا كلام سخيف ومردود عليكم. هل رأيتني آمرك بقتل شقيقك هابيل مثلًا؟ هل وضعتُ أنا الحجر في يدك ثمّ قلت لك هشِّمْ به رأس أخيك يخلُ لك وجهُ أبيك وربِّك وتتزوّج من تشاء! هل أنا السبب في أنّ السيد الأعظم لم يتقبّل قربانك وأنّ زرعك لم يعجبه؟ وأنت يا سيد راسكولنيكوف هل رأيتني مرّة واحدة أقف بجانبك وأحرّضك على قتل العجوز المرابية؟ هل أنا الذي أعطيتك الفأس وقلت لك تعال يا روديون واقتل هذه المرابية؟ أنت قتلت أختها أيضًا أليس كذلك؟ هل حرّضْتُك على ذلك؟ قل الحقيقة ولا تتهيَّب. وأنت يا ماركيز دو ساد. تُنسَب إليك جرائم شنيعة من قتل وتعذيب لمراهقات وبغايا وارتكاب موبقات سجّلتَها أنت بنفسك في دفترك المنحوس أيام كنتَ سجينًا في

الباستيل. هل رأيتني يومًا من الأيام بجانبك أقول لك افعل هذا ولا تفعل ذاك؟».

ترك زوربا يد مدام بوڤاري من يده، وخطا هونًا بضع خطوات، حتى جاء ووقف قرب راسكولنيكوڤ ثمّ رفع رأسه صوب إدريس وقال:

- في الحقيقة يا سيد إدريس لا أحد يستطيع دحض كلامك. لذلك لن يجيبك لا الماركيز دو ساد ولا قابيل ولا راسكولنيكوڤ ولا أحدٌ آخر من العالمين. منطقك سديد ومفحم وأنا أحييك. وقد ضحّيت بملكوت السماوات لأنك اعتمدت المنطق على التبعية العمياء وتنفيذ الأوامر.

ثمّ اتجه إلى الباقين وقال لهم:

- رُدّوا على السيد إدريس. لماذا أنتم واجمون؟

- دعني أكمل يا زوربا. فأنا لم أنتهِ من كلامي بعدُ.

- تفضّل... تفضّل... فلكلامك نكهة نهود أرامل كريت يا سيد إدريس.

ضحك بعض المجتمعين فلم يأبه إدريس بهم بل واصل كلامه بحماسة أكبر:

«فلتعلموا أنني لم أكن وحدي المعترض على خلق أبيكم الأوّل. كنا نحن - معشر أهل السماء - نعلم أنّ مخلوقًا من الطين سيكون ضعيفًا هشًّا، وأنه سيعصى الأوامر وسيرتكب النواهي، فاقترحت أنا وزملائي عدم المغامرة في منح الطين قيمة لا يستحقّها. كنا نعلم أنكم ستفسدون في الأرض وتسفكون الدماء وحذّرنا من هذه العواقب، لكن لم يكن بيدنا شيء نفعله سوى قليل من الاعتراض. وحين تمَّ خلق أبيكم ونفخ السيد الأعظم فيه من روحه، رأيت أنه لا يليق بي أن أنحني له فعصيت الأمر وتعرفون باقي القصة. لقد صدقت نبوءتنا ووقع ما كنا نحذّر منه. ملأ ابن أدهم الأرض فسادًا وقتلًا وحروبًا، وبدل أن تتحقّق إرادة السيد الأعظم في استعمار الأرض جرى تدميرها منذ أوّل يوم. وها هو قدْري، أقصد قابيل، هنا بنفسه. هو ابن

أبيكم الأول وهو مطلَّع على تفاصيل أمور لم يدوِّنها أحد من الذين جاؤوكم بكتب فيها أوامر السيد الأعظم. ليقم وليفسّر لنا سبب قتله لأخيه هُمام بحسب تسميتنا له في الحارة أو هابيل بحسب تدوينات أخرى تعرفونها! هل عندك شجاعة الاعتراف يا قابيل؟ سأفسح لك مكانًا هنا وأهبك شرف الوقوف معي في مشهد لن ينساه قرّاء الروايات. هيا اصعد».

صفّق دون كيخوته الذي كان ما يزال يحمل الملاءة على كتفه وصاح بالقشتالية - لهجة أهل لا مانشا - بضع كلمات لم يفهمها أحد. بينما بدأ يوهان موريتز يبتسم ويصدر بصفيره لحن أغنية رومانية حزينة. في حين جلس الماركيز دو ساد على الأرض وقد امتقع وجهه من حديث الجرائم. بينما شبكت الليدي تشاترلي ذراعها البضَّ في ذراع مدام بوڤاري وتقدّمت معها صوب الصخرة التي اعتلاها إدريس.

في تلك الأثناء كان سانتياغو يفكُّ الرباط الذي لفَّ به كفيه المتشقّقتين المتقرِّحتين بسبب شدّ الحبال لدى عودته من رحلة الصيد الشهيرة المدوَّنة بتفاصيل دقيقة في رواية العجوز والبحر. بدا العجوز غير عابئ بما يحدث حوله ومنهمكًا في مسألة آلامه الشخصية مستغرقًا فيها. أما الفتى البنديكتي آدسو، فقد ابتعد عن الحشد الصغير وصار ينحني على الأرض كلّ بضع خطوات يلتقط شيئًا ما ويدسّه في جراب مربوط إلى جنبه الأيسر بحزامه الرفيع.

كان جيوڤاني دروغو ينظر إلى الفتى آدسو بقلق. بدا أنه مهتمّ بما يفعله الفتى البنديكتي أكثر مما هو مهتمّ بحديث إدريس عن الخلق والقتل والأفكار الأخرى التي وردت في خضمِّ خطابه القصير.

صعد قابيل الصخرة بهدوء وهو يضع كالعادة يده اليمنى على جبينه كمن يعاني من صداع، حتى وصل إلى إدريس الواقف بزهو يراقب المجتمعين أسفل الصخرة.

- هيّا تكلّم يا قابيل. دعك ممّا سمعتَه عن نفسك في الكتب حتى صدّقته. نعرف قصتك بتفاصيلها المملّة ولا نريد منك الآن سوى أن تقول الذي جرى لك حقيقةً. ولكي نعلم أنك صادق فإنني أطلب منك أن ترفع يدك عن جبينك. فمذ اجتمعنا في هذه الرواية يدك اليمنى لا تفارق جبينك. ماذا تخفي هناك؟

وقهقه إدريس. أثار كلامه فضول الجمع فارتفعت أصوات عدّة:

- نعم يا قابيل. ارفع يدك. ماذا تخفي هناك؟ ارفع يدك. هيا ارفع يدك لنشاهد ما تحتها.

تأتأ قابيل بكلام مبهم. بقيت يده على جبينه. لكنّ الصيحات ازدادت إلحاحًا وحِدَّة. ارفع يدك، ارفع يدك، ارفعها، ارفعها يا قابيل... حتى اضطرّ في النهاية أن يرفع يده عن جبينه، فشهق الجميع وارتدَّت السيدتان تشاترلي وبوڤاري إلى خلف، ثمّ التصقت إحداهما بالأخرى وهما تتمتمان بأدعية وصلوات كثيرة وتلثغان بالفرنسية:

- O Marie, mère de Jésus!

نظر قابيل إلى صدر الليدي تشاترلي ونهديها العاجيين اللذين يوشكان على الهرب من تحت صدريّتها الضيقة. ثمّ أمعن في ملامح الفزع على وجهها ووجه زميلتها مدام بوڤاري فقال:

- هذه اللطخة السوداء التي أفزعتكم، أثر سبابة السيد الأعظم. وضعها على جبيني لحمايتي وتمييزي عن الآخرين، إنّها علامة خاصة، فلقد حماني السيد بعد أن ابتلاني بقتل أخي.

- اروِ لنا يا قابيل بصدق: هل طالبتُك أنا بقتل أخيك؟ هل جئتك لآمرك بحمل الحجر لتقتل به أخاك؟ هل وجدتني ذلك اليوم بجانبك؟

- لا أبدًا. لكن عليك أن تكون دقيقًا. أنت تكرِّر أنني قتلت أخي بحجر بينما في

الحقيقة أنا قتلته بفكِّ حمار.

- هذه في رواية ساراماغو اللعين. ومع ذلك هل أنا الذي خبّأتُ فكَّ الحمار في الحقل مبيتًا جريمة القتل أم أنت؟ على كلّ حال أخبرنا الآن من طلب منك أن تقتل؟

- أنا خبأت الفكَّ ناويًا قتل أخي. لا ذنب لك يا إدريس، بل طَوَّعَتْ لي نفسي قتلَ أخي فقتلته فأصبحت من الخاسرين.

- أرأيتم؟ لقد نطق قابيل بكلام وردَ في كتابٍ من كتب السيد الأعظم. من الواضح أنّ نفسَه حرّضته على القتل. هذه النفس التي تُسمّى - في كتاب السيد الأعظم ذاك - النفسَ الأمارةَ بالسوء هي التي توسوس لكم بأفعال الشر. شروركم تنبع منكم وترتدُّ عليكم. لذلك أقول لكم يا بني أدهم إنكم تكرهونني ليس لأنني كنت السبب في طرد أبيكم أو أنني أتسبّب في مآسيكم وأحرّضكم على الذنوب، بل لأنني أُذكّركم دائمًا بما أنتم عليه من ضعف. أعرِّفكم على هشاشتكم. أضع أصابعكم على مواضع الجراح التي تنكرونها في أرواحكم. أنتم تكرهون أنفسكم الآثمة بكرهكم إياي وتعليقكم كلّ الآثام على مشجب سمّيتموه إدريس. لقد قلت هذا الكلام لأبيكم أدهم أيضًا في «أولاد حارتنا».

- وهل أنت بريء إلى هذه الدرجة؟ أليست لك من سلطة على أحد من الناس؟

رفعت الليدي تشاترلي صوتها بغنج زائد. ردَّ إدريس:

- سلطة؟ من أنا حتى تكون لي سلطة عليكم يا أولاد الأفاعي؟ حتى لو كانت لي سلطة ما فإنها لا تُقارن على الإطلاق بسلطة السيد الأعظم يا عزيزتي كوني اللعوب. ينقصني أن تقولي الآن إنّ كلّ الموبقات التي ارتكبتِها كانت بتحريض منّي. هل رأيتني من قبل؟ هل قلتُ لك خوني زوجك السيد النبيل كليفورد خرّيج كامبريدج مع رجل أدنى درجة منه لمجرّد أنه عاد من الجبهة كسيحًا لا يقدر على إشباع نزواتك؟

لقد فعلتِ من الفواحش ما أخجلَ حتى أكثر المترجمين جرأة، فحذفوا الفصول التي تحكي عن ممارستك الرذيلة مع الخادم أوليڤر ثمّ حمْلكِ منه. لقد كنتِ مستمتعة بما تفعلين من دون أن يردعك وازع من ضمير أو رادعٍ من أخلاق وبالطبع من دون أيّ تدخّل منّي. هل تنكرين هذا؟

لم تردّ الليدي تشاترلي، فتوقّف إدريس عن الكلام وصار ينظر إلى وجه قابيل ووجوه المحتشدين أسفل الصخرة ليلاحظ مدى تأثير حديثه على ملامحهم. طأطأ الجميع رؤوسهم وخيَّمَ الصمت عليهم مثل ملاءة حريرية أُلقيتْ على جثة.

ما إن غطّت ملاءة الصمت رؤوس الحاضرين حتى صرخ الراهب البنديكتي الفتى آدسو كمن رأى كنزًا:

- أعتقد أنني رأيت دليلًا، دليلًا يقودنا إلى القاتل.

التفت الجميع إليه بينما نزل قابيل وإدريس عن الصخرة وانضمَّا إلى الحشد الصغير الذي تحرّك صوب آدسو.

- ما هذا؟ أرني من فضلك.

قال زوربا ذلك وهو يمدّ يده إلى ورقة كانت في يد آدسو. لكنّ الفتى ابتعد ولم يمتثل لطلب زوربا. ابتعد قليلًا وصار يقرأ، بصوتٍ متقطّع، ما هو مكتوب في تلك الورقة التي لوَّثَ الوحلُ أطرافها:

«أنا الموقّع أدناه نيكولاي دوبريسكو، رئيس مخفر الدرك في فانتانا، أتشرَّف بإرسال المدعو ماركو غولدنبرغ، دكتور في الحقوق عمره ثلاثون عامًا، وكذلك المدعو يوهان موريتز، مزارع وعمره خمسة وعشرون عامًا، مخفورَيْن إلى معسكرات العمل وفق أوامركم السابقة المتعلّقة بمصادرة اليهود وباقي المشبوهين

بمنطقتنا».

ركض يوهان موريتز كالمجنون صوب آدسو وخطف منه الورقة وهو يقول:

- هذه ورقتي يا آدسو. هذه هي الورقة اللعينة التي دمّرت حياتي. من أين لك هذه؟ قل لي.

- أنا الذي سأسألك يا يوهان. قل لي أنت كيف جاءت ورقتك إلى مسرح الجريمة؟ أنا أحقّق في مقتل غريغور سامسا.

- من دون أن يكلّفك أحد؟

- لا ضرورة لأن يكلّفني أحد أيّها الروماني. نحن أمام جريمة قتل، وعليَّ أن أخدم العدالة بما تعلّمته من مهارات في خلال خدمتي في دير الجرائم مع السيد ويليام من باسكرڤيل. وكما تعلم ويعلم الجميع أننا جئنا إلى هنا لنبحث عن قاتل سامسا وعن جثته أيضًا لا لنستمع إلى موعظة إدريس الجبلاوي. فسِّرْ لي الأمر يا يوهان. ماذا تفعل ورقة سَوْقك إلى معسكرات العمل هنا؟ نعلم أنّ نسخة منها كانت معك وأنك لففتَها في قطعة من صحيفة قديمة حينما ذهبْتَ إلى بيت القسّ لتحكي له قضيّتك. لكنك عدت من دون أن تلتقي بالقس ومن دون أن تُخرج الورقة من جيبك أصلًا.

سُمعتْ شهقات من هنا وهناك، بينما تجمّدت ملامح يوهان فصار مثل رجل من جليد. ابتسم إدريس ابتسامة ساخرة ولكزَ بمرفقه خاصرة قابيل وهو يقول هامسًا: أبناء أدهم. ما أراكم خُلقتم إلا ليقتل بعضكم بعضًا. لقد حذَّرْنا أنا وزملائي من هذا الأمر وقلنا للسيد بوضوح: أتجعل فيها من يفسد فيها ويسفك الدماء؟ لكنه لم يُصغِ إلينا.

وقبل أن يفتح قابيل فمه ليردَّ على إدريس قال الكاتب العجوز وهو يضرب برأس عكّازته القرمزية حجرًا صغيرًا ليميطه عن طريقه:

«لقد سمعت محاوراتكم. أنا لا أودُّ أن أتدخّل في سير الرواية. لكنني أرى كثيرًا من التجاوزات وإفساد الخطة. لقد قرّرتُ منذ الآن شيئًا سيغيّر مساراتكم جميعًا. لي رأي سأطرحه عليكم مساء اليوم في حانة الفندق وأعتقد أنه سيعجبكم.

والآن، لنعد أيّها الأفاضل فقد صار في يدنا دليل إدانة. وربما أبني الرواية على نقطة التحوّل هذه. شكرًا آدسو. لقد سلَّمْتَنا رأس الخيط. سنجد القاتل وسنجد جثة رفيقكم المسكين غريغور سامسا. وأنت يا يوهان، تأكَّد أنّ العدالة هنا غير تلك التي عاينتها في سنوات عذابك في «الساعة الخامسة والعشرون». لن يظلمك أحد إن لم تكن مرتكب جريمة القتل. هيا بنا أيّها الأفاضل».

وانطلق الجميع عائدين إلى الفندق اثنين اثنين، كأنهم في رتل عسكري يتقدّمهم الكاتب العجوز.

* * *

وجد راسكولنيكوف نفسه جنبًا إلى جنب مع قابيل يمشيان خلف الكاتب العجوز بخطوات متناغمة مع خطواته الوئيدة. لفَّ الصمت خطواتهما المئة الأولى، ثمّ ما لبث قابيل أن سأل راسكولنيكوف من دون مقدّمات:

- سمعتُ من إدريس أنك أنت أيضًا ارتكبت جريمة قتل. هل هذا صحيح؟

- نعم صحيح. قتلت أليونا إيڤانوڤنا المرابية الغبيّة والشرّيرة وأختها ليزاڤيتا.

- لماذا؟

- لقد قتلت النظام الاجتماعي الاقتصادي الفاسد في روسيا القيصرية بقتلي لتلك المرابية العجوز. هكذا يقول النقّاد على الأقل. أما المسكينة ليزاڤيتا، فقد قتلتها بالمصادفة لأنها جاءت ورأتني أقتل أختها. فلو بقيتْ على قيد الحياة لأصبحت شاهدًا على الجريمة. لا بُدّ للمجرم من إزالة الأدلّة التي تؤدّي إلى إدانته فيما بعد. هذه هي

أبسط الأمور التي درسناها في كلية الحقوق. والآن قل لي لماذا قتلت أخاك يا قابيل؟

- لشعوري بالظلم يا راسكولنيكوف. وهو أحد دوافعك أنت للقتل. الشعور بالظلم يجعل العاجز قاتلًا. أليس كذلك؟

- نعم. أنا شعرت بالظلم فلم أتحمّله.

- هل قلت إنك درست الحقوق؟

- تصوَّرْ!

وقهقه راسكولنيكوف حتى رأى قابيلُ سقفَ حلقه.

ثمّ صمت قابيل لبضع ثوانٍ وما لبث أن عاد وسأل مرّة أخرى:

- يعني هذا أنْ لا أحد اكتشف جريمتك؟

- بلى. لقد عرفت الشرطة واشتبهت بي وصارت تحقّق معي حتى كادت تصيبني بالجنون. كان لا بُدّ من أن أعترف بارتكابي للجريمة. أنا ارتكبتها ولم يحرّضني عليها أحد. عقلي أمرني بذلك لأنني رأيت أنّ من الأَوْلى أن يتخلّص المجتمع من مرابية جشعة فاسدة وتافهة. ولذلك تحمّلتُ أنا وحدي وزْر العقاب. وهذا ما يحدث يوم الدينونة. البشر يعاقَبون لأنهم هم من ارتكبوا الآثام والخطايا والجرائم ولم يدفعهم إليها أحد. إدريس على حق. لو لم نكن نحن من نرتكب الآثام والخطايا فلماذا سنُعاقَب؟ هذا بعيد من العدالة الإلهية. القصة طويلة لا يمكن لي اختصارها لك الآن. لكن أعتقد أنك تعرف محنة القتلة. أليس كذلك؟

- نعم يا صديقي. لقد كتب السيد الأعظم أن أكون لسوء حظي أوّل مجرم من بني آدم. قتلتُ أخي ثمّ همْتُ على وجهي في الفلوات. عذّبني ضميري وعاقبني عقابًا أليمًا. حيكت حولي أساطير كثيرة. حتى قيل إنّ دم أخي الذي سال على الأرض

تسبّب بتصدّعاتٍ في صخورها. أنا أصدّق ذلك. فالقتل الذي يسبب تصدّعاتٍ عميقة في روح القاتل يشقّ الصخور أيضًا. كان على صاحبك أن يكتب الرواية عني: «الجريمة والعقاب». يا له من عنوان يختصر محنتي. إنّ لحظة واحدة من سَوْرة الغضب قد تدفعك إلى القتل، لكن بعد ذلك ينتابك ألمٌ لا يشفيه حتى مرور مئة عام على الجريمة. الدم لا ينام يا صديقي. الدم لا ينام.

- والنادم كذلك لا ينام.

غير بعيد عنهما كان زوربا يجلس خلف دون كيخوته على حصانه الهزيل، ويغنّي باليونانية أغنية شهيرة للمطرب جيورجوس باتيس مادًّا يديه في الفضاء كأنهما جناحان فيما كان الحصان الهزيل يجاهد أنْ لا يقع تحت ثقل الرجلين.

أما الماركيز دو ساد، فقد كان يشبك أصابعه بأصابع مدام بوڤاري الرقيقة الدافئة ويميل عليها كلّ دقيقتين، ثم يمد يده فيتحسس مؤخرتها الناعمة بشهوة عارمة.

ولم يلاحظ أحد عيني الليدي تشاترلي، لأنها كانت تمشي إلى جانب يوهان موريتز مُطرِقة برأسها وقد سكنها الحزن الشديد بعد أن روى لها على ما يبدو بعضًا من قصته الحزينة. كانت عيناها الزرقاوان الواسعتان ممتلئتين بدمعٍ كثير بحيث لو هبَّت نسمة خفيفة لسال على خديها الطريين.

خلفهما على بعد ثلاثة أمتار تقريبًا، كان سانتياغو يحاول أن يجعل إيقاع خطواته متناغمة مع إيقاع خطوات الضابط جيوڤاني دروغو العسكرية. كانا صامتين، أحدهما يفكّر في معنى حياته التي قضاها ينتظر المجهول، والآخر يفكّر في معنى حياته التي قضاها على ساحل بحر لا يجود عليه برزق يومه، وعندما جاءته الفرصة تكالبت عليه أسماك القرش الشرسة من كلّ الجهات. لم يختلف قدر هذا عن قدر ذاك. كلاهما كان ضحية انتظار عبثي وإن كان سانتياغو رمزًا نضاليًا إيجابيًا فرضته الجغرافيا المتمرّدة والمرحلة الثورية التي عاش فيها مؤلّف القصة إرنست

همنغواي.

- ما الفرق بين أن تنتظر سمكة لتصطادها أو أن تنتظر التتار لتقاتلهم يا سانتياغو؟ ما الفرق بين أن تصطاد سمكة مرلين ضخمة تتحوّل حين تسحبها صوب الشاطئ هيكلًا عظميًا لا غير، وبين أن تصطاد السراب بشباك الانتظار لمدة ثلاثين عامًا وأنت تراقب صحراء خالية إلَّا من صفير الريح؟

- لا فرق يا صديقي جيوڤاني. لا فرق. أنت قضيت عمرك تنتظر التتار، وحينما جاؤوا أخيرًا كنت مريضًا لا تقدر على مقارعتهم. أما أنا...

- أما أنت، فقضيتَ أربعة وثمانين يومًا تنتظر أن تصطاد شيئًا بلا جدوى حتى بتّ أضحوكة بين الصيادين، وحين جاءتك الفرصة أخيرًا، خانتك الأقدار.

قهقه سانتياغو وقال:

- في الحقيقة لا أعرف لماذا حدّد همنغواي أيام انتظاري بأربعة وثمانين يومًا؟ ما الذي كان سيحدث لو أكملها تسعين يومًا مثلًا؟ أو مئة؟ أو أكثر أو أقل؟

- هذه أسرار المؤلّفين يا صديقي. هل تعتقد أنّ انتظاري ثلاثين عامًا في حصن باستياني العسكري جاء اعتباطًا من لَدُنْ دينو بوتزاتي؟ لا أعتقد. لا شكّ أن الموضوع يتعلق بأسرار يحاول النقّاد كشفها. وربّما كشفوا سرّ أيامك الأربعة والثمانين ونحن لا ندري.

- اللعنة على النقّاد. أحيانًا يقولون أشياء لم تخطر للمؤلّفين ولا حتى لنا - شخصيات الروايات - أصلًا. تصوّر أنّ بعضهم جعل أسماك القرش، التي كانت تنهش سمكة المرلين ذات الرمح الطويل التي اصطدتها، رمزًا للقوى التي يصارعها الإنسان!

قهقه جيوڤاني أيضًا ثمّ مشى الاثنان بعد ذلك بصمت.

في آخر الرتل كان آدسو يمشي مع إدريس وقد أدهشته المصادفة. لأوّل مرّة يلتقي راهب بنديكتي في عمره مع زعيم الأبالسة. لقد سمع عنه الكثير في الكتب التي قرأها والقصص التي سمعها من الرهبان والقساوسة والقرويين عن هذا الكائن العجيب. وها هو أمامه، وجهًا لوجه، بل يمشي معه شخصيًا كتفًا إلى كتف، لكن من دون أن يشعر بأيّ كراهية تجاهه. كان عليه أن يرفع صليبه، المعلّق بسلسلة جلدية إلى رقبته والمتدلّي على صدره، في وجه إدريس ليطرده لكنه لم يفعل ذلك. لم يشعر بأي خوف ولا حتى بذرَّةٍ من الحقد المتوارث على هذا المخلوق المشكِل. استغرب آدسو هذه المشاعر الجديدة وقال في نفسه:

- إن كان إدريس بهذه الحكمة وهذا المنطق السديد فما هو إلَّا فيلسوف. إنه لا ينكر وجود السيد الأعظم بل يكنّ له كلّ الاحترام. فلماذا تعلّمْنا أن نخشاه ونجتنب طريقه ونمقته؟ لماذا جعلناه رمزًا للشرّ وهو على هذا القدر من الحكمة؟ الآن فهمت لماذا سدَّ الراهب الأعمى يورج رئيس دير الجرائم بابَ المكتبة أمام جميع الرهبان. الراهب الثمانيني الذي أراد الحؤول دون وصول الرهبان إلى كتاب فن الشعر لأرسطو لم يَخَف من الشرور والهرطقة الموجودة فيه كما كان يدّعي. الأمر كلّه يكمن في أنّ حكمة أرسطو ومنطقه القوي كانا كافيين لزعزعة الإيمان التقليدي الذي ورثناه. الحكمة تحمل من القوّة ما لا يحمله الشرّ ولا الإيمان.

وكم فوجئ آدسو حين باغته إدريس بقوله:

- لست شريرًا. وكذلك لستُ حكيمًا. أنا مجرّد كائن يحتكم إلى العقل والمنطق وأنا لم أنكر وجود السيد الأعظم ولم آمر أحدًا بإنكاره. أحببته أكثر من باقي زملائي وعبدته أكثر منهم. لكنني شعرت بأنني ندٌّ له ومن حقّي أن أترافع أمامه في أهم قضية أخبرنا بها. لكنكم تعلّمتم كرهي من القساوسة والرهبان وباقي رجال الدين. العلاقة

التي تحكمنا، أنا ورجال الدين، هي علاقة كراهية متبادلة. لقد أضافوا إليَّ وإلى نسلي كلّ الشرور، ونسوا أنّ نفوس البشر هي منبع الشرور. لقد رأيتُ كيف أنّ السيد الأعظم صنعَ أدهم بيده من الطين، رأيت كيف أنه جمع في طينته كلّ العناصر، خيرًا وشرًا، قوة وضعفًا، سموًا ووضاعة. مزج المتناقضات كلها في تلك الطينة ثمّ طلب منَّا أن ننحني لها. كان اجتهادي حينذاك أنّ تلك الطينة لا تستحقُّ السجود فظللت واقفًا من دون أن أمتثل للأمر. كنت أريد أن أكشف السرّ من جهة، أيْ سرَّ مطالبتنا بالانحناء لطينة لا نعرف من أين أتت ولا ما هو مصيرها ولا الغرض من خلقها، ومن جهة أخرى نأيت بنفسي عن السجود لمخلوقٍ طيني وضيعٍ وأنا قضيت دهورًا في عبادة السيد الأعظم. إنّ السيد الأعظم، وحين أراد أن ينفخ الروح في تلك الطينة، وهو سرهّ الأكبر، طلب منَّا أن تكون وجوهنا إلى أسفل لكي لا نرى كيف يحدث ذلك. الجميع انحنوا يا آدسو. الجميع باستثنائي. وحدي ظللت واقفًا أراقب، يدفعني الفضول إلى ذلك. والفضول أبو المعرفة يا صغيري. وها أنت يدفعك الفضول لتعرف القاتل. ولولا فضولك المعرفي - أو لأقل - لولا فضولك الجنائي لما اهتمّ أحد بقضية الفتى المسكين غريغور. تذكّر فضول معلّمك الراهب الفرنسيسكاني ويليام ودوره الكبير في كشف الغطاء عن جرائم القتل الغامضة في ذلك الدير الإيطالي اللعين.

- هذا صحيح. لقد حدث ذلك فعلًا. والآن لا يدفعني إلى الانخراط في إثارة هذه القضية سوى الفضول الجنائي. أنا أعتقد أن للسيد يوهان موريتز يدًا في الجريمة.

- يوهان المسكين!!!

- لا أعتقد أنه مسكين.

- ولماذا لا تكون أنت القاتل ولا يكون سعيك للكشف عن الجريمة محاولة لتغطية جريمتك!

صُعِق آدسو. رسم إشارة الصليب على صدره. حدَّق مليًا في قدميْ إدريس ثمّ

في رأسه وابتعد مسرعًا تلاحقه قهقهة مدوية:

ـ أنت مثل غيرك يا آدسو. ما تزال تحمل أثرًا من عقائد الكهنوت التي حاول أستاذك ويليام التمرّد عليها. لقد صدّقتم خرافةً صنعتموها بأنفسكم. كيف تكون لنا أظلاف وقرون؟ هذه صورة كاريكاتورية أنتجها عنَّا خيالكم السقيم المشبع بالكراهية. خيال شعبي ورثتموه من الشعوب التي دوَّنت الملاحم الكبرى كالفرس والهنود والإغريق. أتظنوننا من الماعز؟ هل تعرف أنّ لقبي كان طاووس الملائكة؟ كنتُ أجمل أهل السماء. نعم كنتُ طاووس ذلك الملكوت. وكما قلتُ لك آنفًا إنني بدأتُ أشكُّ فيك. ربما كان سعيُك الظاهري الحثيث لكشف القاتل يا آدسو محاولة للتغطية على القاتل الذي هو أنت.

5

حين عاد أبطال الروايات إلى الفندق بعد أن فشلوا في العثور على جثة زميلهم غريغور سامسا، ارتموا على الأرائك الوثيرة المحيطة بطاولة زجاجية كبيرة انتصبت فوقها مزهرية خزف مزخرفة بنقوش بديعة ومليئة بأزهار زاهية جذّابة يفوح أريجُها في أرجاء البهو الفسيح. وما إن استقروا في مقاعدهم حتى بدأ اللغط وصاروا يتحدثون عن موضوع الجثة المختفية والقاتل المجهول. كان آدسو مصرًا على أن الورقة التي رآها دليل دامغ على أن إدانة موريتز بجريمة القتل بينما ارتفعت أصوات عديدة منها صوت مدام بوڤاري تدافع عن موريتز وتدعو إلى مزيد من التحقيق لكشف القاتل الحقيقي. مرت بضع دقائق انتظر خلالها الكاتب العجوز بصمت حتى ساد الهدوء فتقدم قليلًا وصار يخاطب الحاضرين بصوت ودود ونبرة أبوية قائلًا:

«أيّها الأفاضل. ضيوفي الأعزاء إلى مائدة هذه الرواية. أودُّ أن أخبركم أنّ اجتماعًا مهمًا سنعقده الليلة في الحانة. هناك قرارات مصيرية تتعلّق بكلّ واحد منكم سأتّخذها الليلة وسنرى كيف تسير الرواية بعد ذلك. ربما تعلمون أو لا تعلمون، أو ربما يعلم بعضكم أنّ خيوط السرد تنفلت من يد الروائي وتتحرَّر الشخصيات من هيمنته فترسم أقدارها بنفسها بطريقة تدهش المؤلّف نفسه. واجتماع الليلة سيكون خوضًا في هذا الموضوع الخطير. لقد لاحظتُ أنّ بعضكم يحاول الخروج عن النص. هذا لا يزعجني بالطبع، بل يمكن أن يضيف زخرفة جميلة للمتن الروائي الذي أنا بصدد تدوينه، مثل زخرفة هذه المزهرية التي أمامكم، لكنني أقول لكم وبكلّ وضوح

إنني أريد أن يكون كلّ شيء بإشرافي. لا أحبّذ أبدًا أن تتصرّف شخصياتي على هواها.

بأيِّ حال سأشرح لكم القضية فيما بعد. والآن استمتعوا بوقتكم. اجتماعنا الليلة بعد غروب الشمس بثلاث ساعات. لا تنسوا ذلك ولا تتأخّروا عنه».

سَرَت همهماتٌ غير مفهومة لبعض الوقت حتى وقف آدسو وسأل الكاتب العجوز:

- نستمتع بوقتنا؟ وماذا بشأن قضية جريمة الغابة الغربية؟ أقصد مقتل سامسا والورقة التابعة للسيد موريتز التي رأيناها هناك؟

- يوهان مسكين يا آدسو. ضحيةٌ ضعيفة مثله مثل سامسا فلماذا يقتله؟ ما مصلحته في إزهاق روح بريئة؟ إنه لا يقدر حتى على الابتسام.

ارتفع صوت الماركيز دو ساد. حاول يوهان أن يبتسم فلم يستطع. كان وجهه يوحي بهموم لا تسمح له بتحريك أي عضلة تساعد على الابتسام. وبعد بضع ثوانٍ نهض متثاقلًا. وضع يده اليمنى في جيبه وصار يحرّك الأخرى بتناغم مع الكلمات البطيئة التي يتفوهّ بها:

- لم أفكّر حتى في قتل نملة يا أصحابي. ولا أحبّ منظر الدماء. ولو فكّرت يومًا بالقتل لقتلت من اغتصب سوزانا وكذلك رئيس مخفر الدرك نيكولاي دوبريسكو الذي أرسلني مخفورًا لأقضي ثلاثة عشر عامًا من عمري في المعسكرات، متنقلًا من معسكر إلى معسكر، قضيت أكثر من خمسة آلاف وسبعمئة ليلة بعيدًا عن سوزانا. لذلك أعتقد أن من الأفضل أن تعيد إليَّ تلك الورقة اللعينة يا آدسو لأحرقها. إنها نذير شؤم أينما كانت.

- تحرقها؟ هذه الورقة هي الدليل الوحيد حتى الآن الذي يمكن أن يقودنا إلى

معرفة القاتل. لا يحرق الأدلّة سوى من ارتكب الجرائم. وأنا أقولها بصراحة وأمام الجميع، إنني أشتبه بك يا يوهان.

ساد الهرجُ والمرج واللغط جوَّ البهو من جديد، وصار كلّ شخصين أو ثلاثة يتحدّثون بصوت مرتفع حتى صرخ الكاتب العجوز:

«كفى. كفى أرجوكم. أعتقد أنكم تتجاوزون الخطوط المرسومة لكم. هذا أكثر ما يزعجني في الرواية. وموضوع قتل سامسا لا يمكن حلّه بين ليلة وضحاها. هذه جريمة قتل ولكي تأخذ العدالة مجراها يجب أن نرى الجثة المفقودة أوّلًا. لا يمكن أن نعرف القاتل ما دام القتيل غائبًا. أما الورقة وما إذا كانت دليل إدانة أم لا، فسنتحدّث بشأنها الليلة أو غدًا صباحًا يا آدسو. الآن أترككم على أن نلتقي بعد الغروب بثلاث ساعات كما اتفقنا».

انصرف الكاتب العجوز ومشى كعادته ببطء يتوكّأ على عكّازته القرمزية، ثمّ اختفى في أضواء النهار الخارجية.

غربت الشمس.

وبعد أن مضى أقل من ثلاث ساعات على غروبها اجتمع في الحانة إحدى عشرة شخصية فقط. كان هناك شخص ما لم يأتِ بعد.

نهض زوربا وطلب من الحاضرين أن يعلنوا عن أنفسهم ليعرف الغائب. رفع كلّ واحد يده وصرَّح باسمه، فتبيّن للجميع أنّ الروماني يوهان موريتز لم يحضر الاجتماع.

قال آدسو بنبرة فيها يقين الكهنوت:

- قلت لكم - أيّها السادة - إنني أشتبه في هذا الرجل. فهذه الورقة التي تحمل اسمه، والتي عثرنا عليها في المكان الذي رأى فيه السيدان زوربا ودون كيخوته جثة

المسكين غريغور سامسا، لهي دليل إدانة لا يمكن له دحضها. أعتقد أنه هرب من الفندق لينجو من العقاب.

قال زوربا:

- لا تقسُ على الرجل يا آدسو، لا يمكن تثبيت الاتهام إلّا بعد محاكمة عادلة.

أيَّدهَ الماركيز دو ساد قائلًا:

- هذا صحيح يا فتى. ثمّ إنّ ورقة واحدة لا تكفي دليلًا للإدانة. إن لم يعترف، فكلّ أدلّتك هراء يا آدسو. الاعتراف سيد الأدلّة. أليس كذلك يا طالب الحقوق يا راسكولنيكوف؟ أنا مثلًا كتبت رواية «مئة وعشرين يومًا في سدوم»، عندما كنت سجينًا في الباستيل، وفي هذه الرواية من الفظائع ما دفع الناس إلى تنصيبي رمزًا للوحشية الفائقة. لكنّ الحقيقة هي على عكس ذلك. لستُ وحشًا، والسادية مصطلح سارع إلى نحته علماء النفس بناءً على نتف من الأخبار المتواترة عني، ولكنها برغم تواترها لا تملك صدقية الخبر اليقين. هذا المصطلح الشنيع يشبه إلى حدٍّ كبير مصطلح اللواط أو اللوطية. أليس المصطلح منسوبًا إلى أحد أنبياء العهد القديم؟ هل كان لوط يمارس اللواط؟ في حالتي الأمر مطابق لـما عند النبي لوط. لا علاقة له بتلك الأفعال، تمامًا كما ليست لي أي علاقة بما وصفتها من أعمال مقزّزة في رواياتي. ولتعلم أنني عشت في زمن المقصلة يا آدسو. هل كان في عصرك أيام محاكم التفتيش شيء اسمه المقصلة؟ إنّ الذين وضعوا رقبة ماري أنطوانيت العاجية الجميلة تحت حدِّ المقصلة وكذلك رقبة زوجها المواطن لويس كاپيه، أقصد لويس السادس عشر، لا تهمّهم ألف رقبة مثل رقبتي الهشّة. كان الناس في زمني يساقون إلى المقاصل كالنعاج، وكانت الرؤوس تتدحرج مثل ثمار عظيمة من البندق بدون أن يرفّ للجلادين جفن. هل كانوا سيوفّرون رقبتي لو كنت مجرمًا إلى تلك الدرجة؟ لم يفرّق القرّاء بين ما كتبته في رواياتي وبين الواقع الذي عشته فعلًا. نعم، كنت

شهوانيًا، ولكنني لم أكن سفّاحًا. ربما كنت رجلًا عنيفًا بعض الشيء، لكن ليس إلى درجة أن أزهق فيها روح من أمارس معه أو معها الجنس.

بدا أنّ دون كيخوته وسانتياغو قد ضاقا ذرعًا بالحديث، فخرجا يتبع واحدهما الآخر من الحانة من دون أن يلاحظ خروجهما أحد.

وضعت مدام بوڤاري يدها على فمها لتمنع كلمة أوشكت أن تخرج من بين شفتيها الكرزيّتين. ولاحت على شفتَيْ إدريس الجافّتين كسنبلتَي قمح في الصيف طيف ابتسامة ساخرة وهو يقول:

ـ أنت يا ماركيز دو ساد لا تدافع الآن عن يوهان موريتز. إنك تستغل القضية لترافع عن نفسك وتدفع عنها التهم الملتصقة بك. مرافعتك الآن لن تفيدك أيّها السفاح، فلقد رُسِّختْ صورتك للبشرية بشكل مجرم يتلذّذ بممارسة العنف والوحشية، كما صُوِّرتُ متمرّدًا على أوامر السيد الأعظم ورمزًا للشرّ المطلَق. بل حتى أنني صُوِّرتُ بشكل مخلوق مضحك له قرون وأظلاف. هل أنا تيس أيّها السادة؟ إنَّكم ترونني الآن بينكم! هل أنا تيس؟ أنا وذريّتي وكلّ بني جنسي ضحايا خيال البشر الذين لا يريدون أن يتزحزحوا عن قناعاتهم وتصوّراتهم المسبقة.

ثمّ التفَتَ إلى الراهب الفتى آدسو وقال مستنكرًا:

ـ لقد شاهدتَ الراهب الدومينيكاني برناردو غوي أليس كذلك؟ لقد جاءكم لاحقًا إلى دير الجرائم وكان على خصام مع معلّمك. هل تعلم أنّ ذلك الراهب أعدم بنفسه حوالى خمسين شخصًا في محاكم التفتيش؟ هل تعلم أنه أَمَرَ بحرق المئات من الهراطقة كما كنتم تُسمُّون كلّ مُعارِض لسلطتكم؟ لماذا لم يصبح هذا الراهب وأمثاله رموزًا للشرّ وشياطين بشرية؟ لماذا لم ينحتوا من اسمه مصطلح البرناردية ـ مثلًا ـ ليدلَّ على العنف بدل أن يتكالبوا على روائي متمرّد على طغيان لويس السادس عشر وزوجته ماري أنطوانيت ويعتبروه رمز العنف والتلذّذ بالقتل والاغتصاب؟

أطرق آدسو برأسه وهو لا يعرف كيف يجيب. عاد الماركيز دو ساد إلى الكلام بعد أن وجد في كلام إدريس دعمًا لأفكاره وقال:

ـ الأفضل الآن أن نركِّز على قضية السيد موريتز قبل أن يتمَّ إعلانه قاتلًا.

تجرّأت مدام بوڤاري أيضًا على الكلام، فرفعت يدها عن فمها وقالت ببهجة واضحة:

ـ هذا صحيح. علينا أنْ...

وقبل أن تكمل الجملة اندفع دون كيخوته إلى داخل الحانة محدثًا جلبة كبيرة وهو يصيح:

ـ روسينانتي. لقد سرقوا روسينانتي. حصاني الحبيب سرقوه! أين أنت أيّها الدبُّ سانشو؟ لقد سرقوا حصاني!

قهقه زوربا:

ـ روسينانتي بحاجة إلى ثلاثة شهور، تعلفه في كلّ يوم منها شعيرًا وسكَّرًا حتى يجوز لك إطلاق صفة حصان عليه. لقد رأيناه اليوم. كنتُ خلفك على صهوته في طريق العودة من الغابة الغربية، واستمتعت بألحان ضراطه مع كلّ خطوة. حصانك يضرط الآن على راحته بلا إيقاع في مكان ما، فلا تقلق.

ضحك الحاضرون، واحمرَّتْ وجنتا الليدي تشاترلي حتى صارتا مثل ثمرتَي برقوق. نظر إليها زوربا باشتهاء، فيما رفع جيوڤاني دروغو كأسه عاليًا وهو يقول:

ـ فلنشرب نخب هذا الفندق العجيب وصاحبه السخي النبيه العبقري. يبدو أنّ المكان هنا لا يُملّ أبدًا. لقد عشت في حصن باستياني اللعين ثلاثين عامًا، أحد عشر ألف يوم من الأيام المتشابهة كبعر العنزة. كان انتظارًا قضى على عمري كله. لكنني

هنا مستعد أن أعيش مئة عام من دون أن أنتظر شيئًا بلا ملل. شكرًا لك أيّها الكاتب العجوز. لقد أخرجتني من محنة عظيمة.

رفع الآخرون أيضًا كؤوسهم بينما جلس دون كيخوته مضطرًا، من دون كلام، على كرسيه بعد أن شدّه زوربا من حلقة في درعه الصدئة.

وقبل أن يرتشف الحاضرون ما رفعوه إلى شفاههم، دخل سانتياغو كالعاصفة وقال لاهثًا:

- يوهان. يوهان موريتز!

اندفع إليه آدسو يسأله وهو يشدُّ جرابه على خصره ويغطّي رأسه بقلنسوته:

- ما به يوهان؟ لا تقل إنه هرب! أعرف أنّ اشتباهي به ليس عبثًا.

- لا لم يهرب. وكيف سيهرب المسكين وهو مقتول في غرفته؟

- مقتول!

صرخ الجميع بصوت واحد ووضعوا كؤوسهم من دون أن يرتشفوا منها شيئًا فيما انسحب آدسو إلى وراء.

ارتمى سانتياغو على أقرب كرسي إليه لاهثًا ورأى نفسه إلى جانب راسكولنيكوف الذي بادره مستفسرًا:

- وكيف تعرف أنه مقتول؟ هل رأيت دماءً تنزف من جرح ما في جسده؟

- وهل يتمُّ القتل فقط بآلات حادة يا راسكولنيكوف؟ ليس كلّ القتلة يستخدمون الفؤوس.

قال زوربا وهو يغمز الماركيز دو ساد، ثمّ وضع يده على كتف الليدي

تشاترلي العارية وضغط اللحم الناعم باشتهاء كبير.

ردَّ سانتياغو بعد أن التقط أنفاسه:

- لقد رأيته مخنوقًا. وكان يبتسم.

- مخنوقًا ويبتسم؟ هل هذا لغز؟

سأل آدسو الذي عاد إلى مكانه بعد أن نزع قلنسوته. وقبل أن يجيب سانتياغو سمع الجميعُ صوت الكاتب العجوز يسبقه:

- للأسف أيّها الضيوف الأعزاء، فإنّ خبر مقتل السيد موريتز صحيح. لقد كنت في غرفته قبل قليل وما قاله رفيقكم سانتياغو صحيح. لقد مات مخنوقًا وهو يبتسم. أغلب الظن أنّ هناك من خنقه بوسادته. ابتسامته لغز. ابتسامة متصلبة كأنها جزء من حركة شفتيه اليابستين. الآن أمامنا جريمتا قتل.

- وجريمة سرقة. لقد سرقوا روسينانتي العزيز.

قال دون كيخوته بنبرة كالنشيج.

- حصانك لن يذهب بعيدًا يا دون كيخوته. وبأيّ حال، فالأهم الآن هو ما يجري هنا من جرائم. القتل أخطر من السرقة.

- لكنهما متلازمان في كثير من الأحيان. القتلة يسرقون واللصوص يقتلون. أليس كذلك يا راسكولنيكوف؟ قتلتَ العجوز ثمّ سرقتها من دون أن يكون ذلك من ضمن خططك.

قال آدسو وهو ينظر إلى راسكولنيكوف. ردَّ الشاب الروسي ممتعضًا:

- لا تجعلني أمثولة بعد الآن أيّها الراهب الفتى. موضوعي لا يشبه ما يجري هنا.

- آسف يا راسكولنيكوف. ما أردتُ قوله هو أنّ القاتل بيننا.

- ومن أين جاءك هذا اليقين يا آدسو؟ لماذا لا يكون القاتل من خارج الفندق؟

- لأنّ هذا مستحيل يا سيد دروغو. السيد الكاتب أكَّد لنا أن لا أحد يعيش في هذه المدينة بعد الحرب الهائلة التي أتت على كلّ نسمة حياة فيها وفي غيرها من المدن.

- ما قاله آدسو صحيح. إذن القاتل منّا وفينا.

ردَّ الماركيز دو ساد وساد الصمت.

أثناء تلك المحاورة رسمت السيدتان بوڤاري وتشاترلي إشارات صلبان كثيرة والتصقت إحداهما بالأخرى، تحفُّ بهما ابتسامة شبقة من زوربا. انتظر الجميع تعليقًا من الكاتب العجوز الذي كان يقف أمامهم بقامته الفارعة تلمع بدلته الثلجية لانعكاس الأضواء الخافتة في الحانة عليها. وقبل أن يتكلّم، عاد آدسو إلى الحديث وأشار بيده إلى سانتياغو:

- وماذا كنت تفعل في غرفة السيد موريتز يا سانتياغو؟

- براڤو. سؤال حصيف ينمُّ عن حسٍّ جنائي رفيع.

قال إدريس مصفّقًا، فتدخّل الكاتب العجوز:

- دعونا الآن نتكلّم في الخطة الجديدة من هذه اللعبة التي أقحمتكم فيها. موضوع يوهان موريتز مقلق للغاية وسنبُتُّ فيه بلا شك. لكن صدّقوني لن نصل إلى قاتل يوهان ما لم نصل إلى قاتل غريغور. ولن نصل إلى قاتل غريغور ما لم نعثر على جثّته. ولن نعثر على جثته ما لم نشُنَّ حملة بحث حثيثة في الغابة الغربية وجوارها. هكذا هي خيوط وتشابكات الجنايات. أليس كذلك يا آدسو؟

- لم أرتكب في حياتي أيّ جريمة. يمكنك أن تسأل راسكولنيكوف.

- قلت لك لا تجعلني أمثولة أيّها الراهب الفتى. ألا تفهم؟

- مجرّد سؤال بما أنّ لك تجربة في الموضوع. لا تحمل كلامي على أنه طعْن فيك وشماتة أو ما إلى ذلك.

- طيِّب، فهمتُك. أنا أقول حتى لو أنّ المحقّقين أهملوا القاتلَ فإنه سيعلن عن نفسه ولو في آخر لحظة من حياته. القتل ليس بالأمر الهيّن. ولا يمكن التخفّف من وزره إلّا بالاعتراف. لو عرفتم مقدار راحة القاتل حين يتخلّص من هاجس الملاحقة لأدركتم أنّ القاتل الذي بيننا سيعترف عاجلًا أو آجلًا. المهم الآن أن نحتاط للأمر ونكون حذرين. إذ نحن لا نعرف من سيكون الهدف التالي. فمِنَ الواضح أنه قاتل متسلسل، وهو ليس قاتلًا بالمصادفة.

- مثلك.

قال إدريس ذلك، فردَّ راسكولنيكوف غاضبًا:

- لا ليس مثلي! صحيح أنني خطّطتُ لجريمتي الأولى. أقصد قتل المرابية العجوز. لكنني لم أقصد قتل أختها ليزاڤيتا. الجريمة الثانية جاءت بالمصادفة لأنّ ليزاڤيتا شاهدتني وأنا أقتل.

عقَّب جيوڤاني وهو يلمس الزخارف المرسومة على مزهرية الخزف:

- أنت تكرِّر كلامك يا راسكولنيكوف. لقد قلت لنا سابقًا ما تقوله الآن. ما الجديد؟

- لعلّه يحاول التخفّف من وزر الجريمتين الثقيلتين. تكرار سرد حادثة متعلّقة بجناية يخفّف من عبئها الثقيل.

قال زوربا معقّبًا على كلام جيوڤاني دروغو، ثمّ ابتسم ويده تنزلق بحرية على ظهر الليدي تشاترلي حتى ملتقى ردفيها.

- أرجو أن تعيروني أسماعكم. كما وعدتكم، فإنّ موضوع الجريمتين لن يبقى من دون حلّ. المهم الآن هو سبب اجتماعنا الليلة.

- من فضلك أخرجني من هذه المتاهة. لم أعد أحتمل.

نهضت مدام بوڤاري وقالت بصوت متهدّج. وافقَتْها الليدي تشاترلي فنهضت بدورها وقالت:

- لا تروق لي هذه اللعبة. أخرجْتَنا من سجنٍ ووضعْتَنا في آخر.

- سجن؟

قال الكاتب العجوز مستغربًا. فردَّت الليدي تشاترلي:

- أنت وصفْتَ الروايات بالسجون.

ضحك الكاتب العجوز. تقدّم خطوتين وقال:

- هذا صحيح يا سيدتي الجميلة. يبدو أنني نسيت وصفي هذا. ولكن كوني على يقين - أنت وهؤلاء الأصحاب - أنني سأقرّر الليلة ما هو مهم لكم جميعًا. لا سجن بعد اليوم.

ضحك الماركيز دو ساد بدوره. رمق مدام بوڤاري بنظرة مفعمة بالرغبة والإعجاب ثمّ قال:

- قضاء ألف عام من السجن بصحبة امرأة رائعة مثل السيدة إيمّا بوڤاري أفضل من حرية أبدية مطلقة بلا امرأة. ما كان الباستيل سجنًا لو أنّ امرأة فاتنة مثل مدام بوڤاري سكنت في زنزانتي.

تورَّدتْ وجنتا إيمّا خجلًا، فخفضت رأسها وغابت ابتسامتها المشرقة التي رسمتها شفتان من أجمل ما رآهما الماركيز دو ساد من شفاهٍ إلى تلك اللحظة. غابت تلك الابتسامة مثل شمس تختفي وراء الأفق بينما وضعت الليدي تشاترلي رأسها بدلال على كتف زوربا، وأغمضت عينيها مستسلمة لذراعه. بقيت أنظار الآخرين مشدودة إلى الكاتب العجوز ينتظرون ما سيقوله.

- لكن يوهان.....

حاول سانتياغو العجوز أن يتكلّم فقاطعه آدسو:

- أعدك بأن أكتشف قاتله خلال يومين. وبالتالي سأكتشف قاتل الفتى غريغور سامسا أيضًا. ليس عندي شك بأنّ مرتكب الجريمتين شخص واحد. سترى ذلك. إن لم أكتشف القاتل فهذا يعني أنّ كلّ ما تعلّمتُه من معلّمي الراهب ويليام ذهب أدراج الرياح.

- أنا واثق منك يا عزيزي آدسو.

ردَّ الكاتب العجوز مبتسمًا ثمّ قال:

«في الحقيقة، سنمضي في هذه اللعبة الروائية خطوة أخرى إلى أمام. ربما لا تعلمون أنّ الشرط الأوّل في نجاح أي رواية هو الإدهاش. والإدهاش أيّها الأفاضل مرهون بالمفاجأة. لا يمكن أن تدهش القارئ إلّا إذا نسفت توقّعاته. وفي حالتكم، في روايتي هذه لا يمكن لي نسف توقّعات القراء إلّا إذا منحتكم الحرية المطلقة كشخصيات روائية. لا تُعْرَفُ الفرس الأصيلة إلّا في مضمار السباق، وليس في الاسطبل أو عند البيطار. اعذروني على هذا التشبيه. إنني أقصد أنّ حصْركم في إطار شخصياتكم المعروفة لن يدهش القرّاء وسيبدو الأمر كما لو أنه تكرار لما ورد

عنكم في رواياتكم الأصلية. هنا يغيب عنصر التشويق وتصبح الأحداث باهتة. لن يستمتع القرّاء بحضوركم في روايتي ما لم تكونوا مختلفين جذريًّا».

- تريد منّا أن نخرج من جلودنا؟

سأل راسكولنيكوف. فتبعه آدسو:

- أعتقد أنّ كلّ واحد منّا يعجبه الجلد الذي يسكن فيه جسده. كلّ واحد منّا يعجبه الدور الذي لعبه في روايته. لا حاجة إلى إقحامنا في أدوار قد لا تناسبنا.

وقال زوربا:

- نعم. أنا شخصيًا منسجم مع الإطار الذي وضعني فيه صديقي المؤلّف دودة الكتب نيكوس. شخصيتي في الرواية مطابقة على الأقل لما كنت عليه في الواقع.

قال الكاتب العجوز:

- لا تستعجلوا الأمر. أنا واثق من أنكم ستحبّون الأدوار الجديدة بل سيجعلكم ذلك تتنكّرون لأدواركم السابقة. تحطيم الكليشيه جزء من هذه اللعبة الروائية. وعلى الأقل سيتصوّركم القراء من الآن فصاعدًا بشكل لم يألفوه عنكم.

- كيف ذلك؟

سأل دون كيخوته وهو يتثاءب، فردَّ الكاتب العجوز:

- لا تستعجل أيّها الفارس الشهم. ستتذوّق مع زملائك طعم المفاجأة اللذيذ وسوف تعاينون التغيّرات الجوهرية بأنفسكم ابتداء من منتصف هذه الليلة. والآن سأودّعكم لنلتقي لاحقًا. بالمناسبة، لم أنسَ موضوع يوهان موريتز. لكن سنبتُّ في الأمر لاحقًا كما قلت، فلا تقلقوا. استمتعوا بوقتكم.

كان يوهان موريتز عند باب غرفته يستعدّ للنزول إلى الحانة حين أصابه ما يشبه صداعًا أليمًا، فوضع أصبعي الإبهام والوسطى من يده اليمنى على صدغه وتراجع إلى خلف ثمّ ارتمى على السرير بوجه ممتقع.

تنفّس بعمق حين تمدَّد على السرير الصغير محاولًا بذلك تخفيف وطأة الصداع المفاجئ. ثمّ رفع أصبعيه عن صدغه وحدّق في السقف مليًا، فظهرت له صورة الملازم الأميركي لويس وبيده آلة تصوير وبين شفتيه سيجارة غير مشتعلة، وقبل أن يلتقط صورة له سأله:

- أين كنت يا يوهان منذ العام 1938 حتى الآن؟

- في العام 1938، كنت في معسكر لليهود المعتقلين في رومانيا، ثمّ في العام 1940، في معسكر للرومانيين الأسرى في المجر لأنتقل بعد ذلك إلى معسكر للأسرى المجريين في ألمانيا النازية، وأخيرًا وجدت نفسي أسيرًا ألمانيًا في معسكر داشو الأميركي. ثمّ أطلقوا سراحي البارحة، وتحديدًا قبل ثماني عشرة ساعة، وجاؤوا بي إلى هنا.

- Keep smiling.

كانت عدسة آلة التصوير في يد الملازم لويس مصوّبة إلى يوهان موريتز. وكان يوهان يفكّر في حياته القاسية في المعسكرات المتعددة حيث عانى بشكل لا يطاق من تبعات هوياته الطارئة والتي لم يتسنَّ له اختيار أية واحدة منها. فكّر بالأسلاك الشائكة التي أحاطت بسنوات عمره بعيدًا عن حبيبته سوزانا. فكّر بكل ما جرى له خلال سنوات الحرب المجنونة. لم يفهم معنى عبارة Keep smiling. ولم يعرف كيف يبتسم. كانت عضلات وجهه وبالأخصّ العضلات الدائرية حول شفتيه عصية على فعل ذلك. ابتسم. كرر الملازم الأميركي لويس وهو يصوب عدسة آلة التصوير إليه. كان الصداع الذي يعانيه فظيعًا للغاية. أفظع من كلّ تلك المعسكرات

التي قاسى فيها الأهوال.

- Keep smiling.

- ماذا تقول؟ لا أفهمك.

- Keep smiling.

كرَّر الملازم ورسم ابتسامة مصطنعة على شفتيه الرقيقتين مشيرًا إلى أنه يطلب منه الابتسام فقط لا غير.

تذكّر يوهان رفاقه الذين قضوا في المعسكرات جوعًا وإعدامًا وحرقًا. تذكّر زوجته سوزانا التي اغتصبها الوحوش الروس. غامت الدنيا أمام عينيه تمامًا مثلما حصل له حين حشروه مع تسعة وستين شخصًا من المعتقلين في صندوق سيارة صغير كاد يختنق فيه. تذكَّر ثرثرات الكاتب تريان كوروغا الذي كان معه في صندوق السيارة الذي يشبه الجحيم. تذكر يوهان ما جرى له حين توقف القطار المخصص لنقل الدواب، والذي كان يقلُّه مع مجموعة من السجناء الآخرين المحشورين معه، في إحدى المحطات. وقتها شاهد رجلًا واقفًا على الرصيف فتكلم معه بالألمانية وتمنى له عودة سعيدة إلى فرنسا. ظنَّه المسافرون الواقفون على الرصيف جنديًا نازيًا فرجموه مع السجناء الآخرين بالحجارة وهم يهتفون: خنزير نازي. سفاح نازي. نازي. نازي.

حينها ثار من معه في عربة القطار وغضبوا لأنه أثار الحشد الواقف على الرصيف والذي لم يكن ليهتم بأمرهم لو سكت. انهالوا عليه بالضرب ركلًا ولكمًا حتى أصيب بجروح كثيرة وفقد الوعي.

ابتسم. ابتسم. ابتسم.

كان لا بُدّ من أن يبتسم أخيرًا. كان لا بُدّ من أن ينتزع ابتسامة من عضلات

وجهه التي تقلَّصت، ويجبر شفتيه على فعلٍ لا تجيدانه.

في اللحظة التي بدأ فيها يوهان موريتز يبتسم وأشرق الضوء الكاشف المنصوب على حامل بثلاث قوائم بالقرب من الملازم، رأى شبحًا يدخل الغرفة ويهجم عليه بلا مقدّمات. لم يستطع أن يميّزه بسبب وقع المفاجأة وضراوة الأفكار التي راودته في تلك اللحظة. لم يشعر إلَّا بوسادة فوق وجهه تكتم أنفاسه والشبح يضغط ويضغط بينما هو يستسلم مبتسمًا. في تلك الأثناء، وهو ينوس بين الحياة والموت من دون أدنى مقاومة، بدأ خَدَرٌ لذيذٌ يغزو كلّ ذرَّة من روحه وجسده، خدر أشبه بالسقوط التدريجي في هاوية النوم حتى انقطعت أنفاسه.

6

غادر الكاتب العجوز الحانةَ قبل أن ينتصف الليل بثلاث ساعات.

قال آدسو بيأس:

- لا أستطيع الآن، بعد أن قُتل يوهان موريتز، أن أُثبِتَ أنه هو القاتل. نحن أمام معضلة جنائية. متاهة حقيقية مثل المتاهة التي أوصلتني ومعلّمي إلى مكتبة الدير. أعتقد أنني لن أقدر على مواجهة هذه المعضلة والخروج من متاهتها بمفردي. الأمر يشبه ما حصل في الدير الإيطالي من جرائم متسلسلة.

- ما رأيك أن أساعدك؟

قال إدريس بنبرة جادّة. فردَّ آدسو:

- المشكلة أنّ من اعتقدتُ أنه القاتل غاب عن المشهد. القاتل شاهد على الجريمة أيضًا. الآن ليس عندنا شهود.

- البحث عن قاتل يوهان والعثور عليه سيحلُّ اللغز يا آدسو. من قتل يوهان له مصلحة في التستّر على جريمة قتل غريغور. وأعتقد أنّ مقتل يوهان بهذا الشكل هو صكُّ براءة له من تهمة قتل سامسا.

ردَّ إدريس، فانبرى راسكولنيكوف يقول:

- ليس بالضرورة أن نربط هذه الجريمة بتلك. قد تحدث عدّة جرائم تبدو في

ظاهرها مترابطة لكنها في الواقع منفصلة.

قهقه إدريس. نهض من كرسيه ومشى إلى باب الحانة وقال بنبرة ساخرة:

- خبير يا راسكولنيكوف. بالطبع، لأي قاتل مبرّرات يقتنع بها. لا أحد يرتكب جريمة قتل من دون مبرّر. أليس كذلك يا قابيل؟

- قتلت أخي بمبرّر. هذا صحيح.

- المهم نحن هنا أمام جريمتَي قتل غامضتين. ولا بُدّ للقاتل أو القاتلين من مبرّرات قد تقنعنا نحن أيضًا. ومع أنني أرى في الموضوع نوعًا من العبث فإنني سأضمّ صوتي إلى أصوات الذين سيطالبون بالكشف على الجثة وتشريحها. أقصد جثة صديقنا الراحل يوهان موريتز. ما رأيكم؟

- رائع يا إدريس. اقتراح سديد. فلنصعد إلى غرفته. معنا آدسو، وستنفعنا خبرته في التحقيق.

ردَّ الماركيز دو ساد. فاستحسن الباقون فكرة الصعود إلى غرفة القتيل. أما السيدتان بوڤاري وتشاترلي، فقد آثرتا البقاء في غرفتيهما.

كان سانتياغو غارقًا في الصمت لا يشارك في الحديث، وكانت نظراته تائهة. نظر إليه آدسو ودقّق في ملامح وجهه وردود أفعاله. أسرَّ في نفسه شيئًا، فصاح به:

- وأنت يا سانتياغو! ألا تريد أن تصعد معنا إلى الغرفة لنعاين الجثة؟

- ولماذا؟ لقد كنت أوّل من رآها. أنا مرهق وأريد أن آخذ قسطًا من الراحة قبل أن ينتصف الليل وتتبدّل أدوارنا. اعذروني لن آتي معكم. وأعتقد أنه لا فائدة من مجيئي أصلًا.

- كما تشاء.

قال آدسو متوجّهًا إلى غرفة يوهان مع رفاقه السبعة الباقين.

وقف آدسو عند باب غرفة يوهان، الملاصقة لغرفته، والتفت إلى رفاقه قائلًا:

- انظروا! النافذة من دون شرفة. والغرفة في الطابق الثالث. لا يستطيع أحد الوصول إلى هذه الغرفة إلّا إذا دخل من الباب.

ضحك زوربا، ثمّ قال بنبرة أقرب إلى السخرية:

- ملاحظة دقيقة. أنت عبقري يا آدسو. أكمل.

لم يلاحظ آدسو أن زوربا غمز جيوڤاني الذي صار يبتسم بدوره، فواصل بحماسة أكثر:

- سندخل الآن ونعاين الغرفة. المجرم يترك دليلًا. حتى لو كان الدليل شيئًا من أنفاسه.

ضحك إدريس أيضًا فشعر آدسو بقليل من الإحراج. قال دون كيخوته الذي كان يضع يديه على درعه من جهة الصدر:

- كم من الوقت تبقى أنفاس المجرم وراءه؟

قال قابيل:

- إلى يوم القيامة يا دون كيخوته. أنفاس القتلة ثقيلة لا تغادر المكان. أقصد أنها تبقى في مسرح الجريمة حتى الأبد. أو إلى أن يتم الثأر من القاتل. اسألني أنا.

قال الماركيز دو ساد متبرّمًا:

- هل تريد أن تدخل الغرفة وتفحص الجثة أم ستبقينا للنقاش العقيم هنا إلى يوم

القيامة؟ هناك قتيل في الغرفة ونحن نزجي وقتنا عبثًا على بابه مثل رهبان بيزنطة وكهنتها.

- معك حق. آسف.

ردَّ آدسو بلطف، ودلف إلى الغرفة يتبعه السبعة الآخرون.

كان سرير يوهان موريتز عند النافذة. وكانت النافذة محكمة الإغلاق.

وكان السرير خاليًا!

- الجثة غير موجودة!

صرخ آدسو برعب.

- وماذا يعني هذا؟

سأل جيوڤاني. فردَّ إدريس:

- هذا يعني أننا دخلنا متاهة حقيقية من القتل المتسلسل. نحن لم نصل إلى قاتل سامسا حتى فاجأنا يوهان بمقتله. وكما قال آدسو قبل مدّة مخاطبًا الكاتب العجوز حين جمعنا في بهو الفندق: هذا يعني أنّ هناك قاتلًا بيننا. أو على الأقل يعني أنّ هناك قاتلًا في الجوار. وليس من المستبعد أن يكون قاتلًا متسلسلًا. لا نعلم من التالي غدًا؟ نعم يا عزيزي جيوڤاني. نحن لا نعلم من التالي ولا بُدّ من أنه واحد منّا.

- أنا لست قاتلًا. ولا أقبل أن أصبح قتيلًا. وسأخرج من هذه الغرفة حالًا. سأخرج من هذا الفندق الذي سجننا فيه هذا الساحر العجوز.

قال دون كيخوته وخرج يصفق الباب وراءه.

ضحك زوربا وقال:

- فارس أصيل أنت يا دون كيخوته! لكنّ الموضوع ليس بإرادتك. كما هناك فهنا أيضًا. نأتي حتى إلى الروايات بدون إراداتنا.

ثمّ قال بقليل من نبرة الحزن:

- في الحقيقة، معه حق. نحن دخلنا متاهة كما تفضَّل إدريس. ولا نعرف كيف ومتى سنخرج منها!

اتّكأ جيوڤاني على حافة النافذة. حدّق في الغابة المترامية أمامه. وبعد صمتٍ وجيز قال:

- لن نخرج منها يا زوربا. العمر عشبة يقضمها الانتظار ورقة إثْرَ ورقة. وأحيانًا كثيرة يكون الانتظار ضربًا من العبث. لا يهمّ ماذا تنتظر بل المهمّ كيف ولماذا ومن تنتظر. لقد قدّمتُ عشبة عمري علفًا لحمار الانتظار. أجل يا قابيل. لا تضحك. كما أنك قضيت عمرك في الندم والشعور بالعار قضيت أنا عمري أنتظر اللاشيء. أنتظر الذي لن يأتي. دعوني أقصَّ عليكم هذه الحكاية:

بعد سنوات كثيرة جاء إلى الحصن ملازم سمين نوعًا ما اسمه سيمونِه ترقّى في الرتب حتى أصبح مقدّمًا وعُيّن قائدًا للحصن في نهاية المطاف. وكان هذا الشاب الطيب يملك منظارًا مقرِّبًا. دعاني ذات يوم بلهفة وقال كمن يريد أن يطلعني على سرٍّ خطير: انظر يا جيوڤاني. هل ترى ما أرى؟ خطفت المنظار من يده وحدّقت في الصحراء المنبسطة أمامنا أسفل الحصن. كانت ثمة نقطة سوداء في البعيد البعيد. قلت للملازم سيمونه إنها ربما تكون دابَّة تائهة أو مجموعة صيّادين. لكنه لم يقتنع. كان يصرُّ على أنّ ما نراه مقدّمة لجنود التتار. لكنه استسلم لرأي الأغلبية وبسبب اللامبالاة التي عاملنا ملاحظته بها، صار هو بنفسه يضحك كلما ذكرنا له أمر النقطة السوداء التي ظهرت في منظاره. بعد أيام وذات ليلة شديدة الظلمة ناداني بلهفة أكبر: تعال وعاين بنفسك يا جيوڤاني. ذهبت معه وصعدنا أسوار الحصن. مدَّ إليَّ سيمونه

منظاره وقال لي ببراءة طفولية: انظر بنفسك يا جيوڤاني. ثمة ضوء في أبعد نقطة من هذا الظلام الكثيف في نفس المكان الذي رأينا فيه نقطة سوداء في النهار قبل أيام. شاهدت عبر المنظار العتمةَ تخيّم على الأرجاء وقلت للملازم سيمونه: لا شيء غير العتمة يا صديقي. ثمّ بعد قليل من التركيز شاهدت نقطة ضوء صغيرة في أعماق الظلام. فهتفت: نعم. لقد شاهدت بقعة الضوء البعيدة. كان سيمونه يُصرُّ على أنّ ما رأيناه من بقعة سوداء في النهار، ثمّ نقطة الضوء في الليل ليس سوى مؤشّرات على قدوم التتار. لكنه في النهاية اعترف أنّ ما نراه ليس إلَّا تهيؤات يسبّبها فقدان التركيز الذي ينتج عن الانتظار المُمضِّ الممل.

نظر آدسو، مثل غيره، إلى وجه جيوڤاني المصفرّ النحيل بعد أن انتهى من حكايته، فرأى ملامحه مشتملة على تعابير غير مفهومة. وبينما غرق الآخرون في الصمت سأله آدسو:

- وما العبرة في ما حكيته لنا يا سيد دروغو؟

- ما من عبرة يا صغيري.

ردَّ زوربا وأضاف:

- فكما لم يكن من انتظاره العبثي في حصن باستياني العسكري أي هدف، ليس لحديثه الآن أيضًا أي هدف.

- لحديثي هدف بالتأكيد يا زوربا. وكما أعطى الانتظار معنىً لحياتي. فإن لحياتنا هنا الآن وبعد هاتين الجريمتين معنىً بلا شك. على الأقل أصبح معنى حياتنا هنا يتلخّص في كشف المجرم وملابسات الجريمة بغضّ النظر عن رغبة الكاتب العجوز وأهدافه الخاصة من لعبته. وفي الحقيقة فقد أردْتُ أن أقول إنّ الرغبة الملحّة في حصول شيء ما تخيّل للمرء أنّ ذلك الأمر قد حصل فعلًا. المحقّق الصغير آدسو

يرغب بشدّة في أن يكتشف القاتل. ولذلك قد يتهيّأ له أنه اكتشفه أو أنه على الأقل على وشك اكتشافه ويشكّ بهذا وذاك. هكذا هُم المحقّقون الجنائيون للأسف. يشكّون في جميع من يلتقون بهم أو تحوم حولهم الشبهات. ولهذا الأمر جوانبه السلبية بلا شك. إنّ الاشتباه الاعتباطي يشمل الأبرياء في كثير من الأحيان فيقلق راحتهم ويجرّهم إلى التحقيق أيامًا وأيامًا. بل إنّ كثيرًا من الأبرياء سيقوا بسبب هلوسات المحقّقين إلى منصّات الإعدام في حين بقي المجرمون طليقين يخطّطون ربما لجرائم أخرى.

- إذن؟

سأل زوربا بيأس. فردَّ قابيل:

- هذه هي عبثية القتل يا زوربا. القتل استعجالٌ لـما هو آتٍ أصلًا. ومن المؤسف أنّ إخوتي من بني آدم انحرفوا عن طريق السيد الأعظم فجعلوا القتل قصاصًا حلًا للقتل. وهذا ينافي ما عرفناه، فلا السيد الأعظم قتلني بفعلتي ولا أبي اقتصَّ مني. الندم أفضل عقاب زاجر. أليس كذلك يا راسكولنيكوڤ؟

- هذا صحيح. قتْلُ القاتل إراحة له من عذابه. لكنَّ تركَه أولى. لا أقصد تركَهُ حرًا بل سجْنُه ونفْيُه إلى العقاب القسري كما حصل معي حين نفوني إلى سيبيريا. من جرَّب محنة ارتكاب القتل يعرف أن الندم أفضل عقاب.

قال راسكولنيكوڤ وهو يلعب بأزرار معطفه الثقيل.

فجأة صرخ آدسو:

- رأيت الدليل. إنه دليل دامغ.

أدار جيوڤاني ظهره للجميع غير مهتمّ بما قاله آدسو، وصار يحدِّق في الظلام الذي يعربد خارجًا من خلال زجاج النافذة المغلقة بإحكام والمطلّة عل الغابة الغربية.

أمّا الباقون، فقد أخرسهم الذهول، فصاروا ينظرون إلى آدسو وقد فغروا أفواههم.

- انظروا. هنا على الوسادة من كلّ طرف آثار قيح وصديد. هذا يعني أنّ رجلًا يداه متقرّحتان حمل الوسادة وخنق بها السيد موريتز. مَنْ مِن بين نزلاء هذا الفندق يداه متقرّحتان؟ إنكم لاحظتموه بلا شك. الصيّاد الكوبي سانتياغو. وهو الذي جاء ليخبرنا عن مقتل السيد موريتز. هل تتذكّرون؟ ما الذي أخذه إلى الطابق الثالث؟

- نعم. رأيت يديه المتقرّحتين لحظة التقيت به أوّل مرّة ونحن قادمون من أطراف الغابة الغربية. كان يجرُّ الهيكل العظمي لسمكة المرلين الضخمة. أليس كذلك يا جيوڤاني؟

قال دون كيخوته بصوت مرتجف وهو يدخل الغرفة. بدا أنه كان يُنصِتُ إلى ما يجري في غرفة يوهان موريتز. قال جيوڤاني موافقًا:

- صحيح. وأعتقد أنّ الجميع لاحظوا ذلك.

- لكن هذا تَسرُّعٌ في الحكم عليه. من يدري؟ ربما أتى المجرم بوسادة سانتياغو بقصد التعمية.

قال الماركيز دو ساد. فسأله زوربا:

- كيف؟ هل تريد أن تقول إنّ المجرم ذهب إلى غرفة سانتياغو وجلب وسادته وخنق بها يوهان موريتز ليتّهم سانتياغو؟ لماذا اختار سانتياغو بالذات؟

قال راسكولنيكوف يسند ظهرهَ إلى باب الغرفة المفتوح على آخره:

- هذه نظرية غير مقبولة. أو لنقلْ إنّ المجرم غبي جدًا لو فكّر كذلك، لأنّ الخنق بوسادة لا أثر عليها أفضل بكثير من الخنق بوسادة عليها آثار شخص ما.

يُفترَض بالمجرم أن يكون ذكيًا. إلّا إذا كان بين المجرم وبين سانتياغو سابق خصومة وأراد أن يلبسه التهمة.

- لكن أين الجثة؟ ما يحيّرنا أنّ الجثث تختفي وليس القاتل فقط.

قال الماركيز دو ساد ذلك، فردَّ آدسو وهو يحمل الوسادة تحت إبطه:

- الأفضل أيّها السادة أن نذهب لنحقّق مع سانتياغو نفسه. هو أثار الشكوك بعدّة تصرفات: أوّلها أنه صعد إلى غرفة السيد موريتز في الطابق الثالث بلا مبرّر ومن دون أن يخبر أحدًا. ثانيها أنه جاء وأخبرنا بمقتله مخنوقًا. وهنا يحقُّ لنا أن نسأله: من أين لك معرفة أنّ موريتز مات خنقًا وليس بسكتة قلبية مثلًا؟ ثالثها أنه لم يصعد معنا إلى الغرفة لمعاينة الجثة. لقد لاحظتُ عليه توتّرًا شديدًا وحين سألته لماذا لا تأتي معنا؟ أجاب: لقد كنت أوّل من رأى الجثة. أنا مرهق وأريد أن آخذ قسطًا من الراحة. وأعتقد أنْ لا فائدة من مجيئي أصلًا.

- اللحظات الأولى بعد ارتكاب جريمة القتل هي الأصعب بالنسبة إلى القاتل. تضيق الدنيا في عينيه حتى تصبح مثل خرم إبرة.

قال راسكولنيكوف، فعقَّب قابيل:

- حين تنتهي سَوْرة الغضب التي تدفع المرء إلى القتل يبدأ الندم بنهش الروح. الندم هو الذي يجعل الدنيا تضيق على القاتل بما رَحبتْ.

عَبَرَ الجميع الردهة الضيّقة من أمام باب غرفة يوهان موريتز ذات الرقم ثلاثة عشر حتى وصلوا إلى المنفذ الذي يفضي إلى الدرج، فنزلوا صامتين كأنهم أشباح في حكاية.

7

- سانتياغو! يا سانتياغو!

صاح زوربا حين استيقظ صباحًا ومشى في الردهة الطويلة ليقف عند باب غرفة سانتياغو. خرج دون كيخوته من غرفته مكفهرّ الوجه وقال:

- ألا تعرف شيئًا اسمه الراحة؟ لقد أشرقت الشمس لتوِّها وأمامنا عمل كثير.

- إنْ تفوَّهْتَ بجملة أخرى فسأحطم فكَّك يا دون كيخوته.

- أنت؟ لا ألوِّث يدي بأمثالك من السفلة. صعلوك مثلك أسلّمه لتابعي سانشو أصلًا.

- ربما لا تعرف قوّة قبضتي لأنك لم تقرأ الرواية التي تتحدّث عني. عليك أن تبتعد عن طريقي حيثما رأيتني. إن جاوزتَ حدودك فسأخنقك بيد واحدة أيّها السافل.

- السافل هو من لا يعرف شيئًا عني ولا يعترف ببطولاتي. سيرتي مدوّنة في أهم كتاب صدر في خلال القرون الأخيرة. أنت ومؤلّفك الذي تسمّيه بالرئيس عالة على دنيا الحكايات.

- لقد جننت بلا شكّ. والأفضل أن أتركك الآن. سأعود إليك لاحقًا لأحاسبك على وقاحتك أيّها السرعوف.

ضحك زوربا من مفردة السرعوف التي ارتجلها في وصف دون كيخوته

الهزيل في ثياب النوم الخضراء. شكّك في أن يكون دون كيخوته قد سمعها لأنه دخل غرفته وأوصد الباب من الداخل. عاد زوربا وطرق باب سانتياغو مرّات متلاحقة ثمّ دفع الباب.

- أين ذهبتَ أيّها العجوز الكوبي اللعين؟ أيّها الصياد الخائب. يا صائد الهياكل العظمية، أين أنت؟

خرج جيوڤاني دروغو من غرفته متثائبًا وقال بكسل:

- رأيته يخرج بسرعة من الفندق. لماذا تريده؟

- قال زوربا غاضبًا:

- سأخرج إليه.

- ولكن ماذا تريد منه؟

- تقول كوني إنه تحرَّشَ بها. سألقّنه درسًا في الأخلاق.

هزَّ جيوڤاني رأسه غير مصدِّق ثمّ خاطب زوربا بهدوء:

- تذكّر أنه أنكر البارحة ليلًا مسؤوليته عن قتل السيد موريتز. لقد غلب بمنطقه السديد المحقّقَ الفتى آدسو وأقنعه وأقنعنا جميعًا أنه ليس القاتل. لذلك حتى لو كان تحرَّش فعلًا بالليدي تشاترلي فإنه سينكر، وسيمتصّ غضبك. الأفضل لك أن لا تحتدّ فهذا يؤثّر على صحتك.

- هذا شأني. ومن يقترب من كوني فسأقطعه كما قطعت أصبع إبهامي اليسرى.

في هذه الأثناء، رأى جيوڤاني الليدي تشاترلي تخرج من غرفة زوربا بقميص نومٍ شفّاف محفور الذراعين ومشقوق من الجانبين. صارت تمشي صوب غرفتها

بخطوات بطيئة كأنها ثملةٌ، استمرّ جيوڤاني يحدّق فيها. أثاره منظر فخذيها الصقيلتين الممتلئتين اللتين لمعتا في أضواء الصباح التي انسربت إلى الردهة الطويلة من نافذة كبيرة في آخرها. حدَّق باشتهاء إلى صدرها ونهديها الحُرَّين ثمّ ظهرها العاري. لكنه سرعان ما غضَّ بصره واختفى في غرفته يفكّر في أن التحرُّش بامرأة على هذا التهتّك ليس ذنبَ المتحرِّش وحده. ثمّ قال لنفسه: العري ليس مبررًا للتحرُّش. هكذا تزدهر البهيمية. ثمّ استدرك يسأل نفسه: كيف يمكن للعجوز سانتياغو أن يتحرَّش بالليدي تشاترلي وهي كانت في غرفة زوربا أصلًا! هل رآها تستحمّ مثلًا؟ هل اختلى بها ومدَّ يده إليها؟ من يدري؟ ربما. إنّ الشهوة هي أولى الغرائز التي تولد مع المرء ولكنها لا تموت حتى إذا مات.

في تلك اللحظة صار زوربا خارجًا أمام بوّابة الفندق. كانت حركاته تشي بموجة غضب عظيمة ونار غيرة تكاد تأكله. راقبه جيوڤاني من النافذة لبرهة قصيرة ثمّ عاد وجلس على طرف سريره وهو يستعيد صورة فخذَيْ الليدي تشاترلي الصقيلين وصدرها العاجي وظهرها البديع ونهديها الحرَّين مثل أرنبين يقضمان البنفسج في البرية.

استيقظ قابيل على صوت تهديدات زوربا. نهض من فراشه يشعر بفرط من النشاط لم يعهده من قبل. دفعه الفضول للنزول إلى الطابق الأول حيث احتدم نقاش حامٍ قبل ربع ساعة بين زوربا ودون كيخوته.

ولـمّا رآه إدريس الذي استيقظ بدوره على صوت الضجة، ناداه:

- إلى أين ستذهب يا صديقي؟

- إلى الطابق الأول لأفهم سبب المشاجرة.

- وهل فهمت سبب مشاجرتك مع أخيك هابيل؟ أبناء أدهم خلقوا ليتشاجروا. ما

الغريب في الأمر؟

- كما تشاجرت أنت مع السيد الأعظم وجادلته!

- لو لم تكن مشاجرتي معه مهمة لما دوَّن السيد الأعظم وقائعها في كتبه.

عاد إدريس إلى الغرفة مزهوًّا بجملته. لكنّ قابيل لم يعلِّق ولو بحرف على السخرية المرة لإدريس، جاره المقيم في الغرفة الملاصقة لغرفته، فواصل سيره ونزل الدرجات الثلاث عشرة إلى الطابق الأول الذي شهد صخبًا أقلق راحة بعض النزلاء.

سار قليلًا في الردهة الطويلة ينظر في الأبواب المغلقة حيث يبيت كلّ من سانتياغو وجيوڤاني دروغو وزوربا ودون كيخوته ومدام بوڤاري والليدي تشاترلي. رأى بابًا من تلك الأبواب مواربًا فدفعه بهدوء، فرأى الليدي تشاترلي متمدّدة على السرير بكامل أنوثتها الطاغية.

- ليليث!

قال قابيل مدهوشًا ثمّ دخل وأوصد الباب وراءه.

ظلّت الليدي تشاترلي متمدّدة على السرير وشعرها يسيل بنعومة على الوسادة ذهبًا خالصًا. لم تنتبه إلى أنّ قابيل ناداها باسم ليليث. وحين التقت نظراتهما ابتسمت له برقّة من دون أن تقول شيئًا. جلس قابيل بجوارها مطْمئنًّا إلى أنّ ليليث لن تسمح لزوجها نُوَا الاقتراب من حجرتها وأنه سيكتفي بالاستماع بحنق إلى آهاتها وهي تمنح حقله لرجل آخر. ومهما بدا لنا الأمر غير معقولٍ، فقد كان انعدام خبرة قابيل في ممارسة الحب هو الذي منعه من التمادي في إعصار الفجور الذي أخرج الليدي تشاترلي عن طورها ذلك الصباح الباكر. ومع ذلك فقد وجد نفسه يلتصق بها ويضع ذراعه تحت عنقها الغض النضير ويعتليها. دفع الشبقُ الصباحيُّ زوجة البارون

ملفورد إلى أن تصرخ وتتأوّ مع كلّ لمسة كأنّ بها مسًّا من الشيطان. وحين بدأت خمرة النشوة تفعل مفعولها اصطكَّت أسنانها البيضاء وصارت تعضُّ الوسادة المحشوة بريش طيور البرية من طوفان الشهوة، ثمّ غرزت أسنانها في كتف قابيل وصولًا إلى عنقه فيما كان هو يصعد ويهبط مثل فارس فوق جسدها الشهيّ البهيّ. رويدًا رويدًا التفّت عليه المرأة الفاتنة مثل أفعى أناكوندا برازيلية شقراء وصارت تعصره بقوة. وكلما ازداد غلواء النشوة، عصرته أكثر حتى بدا أنها لن تترك فريستها حتى تقضي على آخر نفس فيها. كانت تجد لذَّتها في عصره بيديها وأسنانها، واستمرّت تفح وتنفخ في أذنيه آهات الشبق حتى أثارته تلك الآهات وأنعظته. احتار فيها قابيل إذ بدا أنها لا ترتوي وتطلب المزيد وتريد أن تبتلعه بعد أن تفقده كلّ حركة. وفي المقابل ظهر أنّ همة قابيل لا تفتر وأنه عصيٌّ على الابتلاع ويملك طاقة ثلاثة أحصنة لم يبخل عليها سائسها بأجود أنواع العلف.

بعد الجولة الأخيرة، وحين مضت ساعة من الزمن، استلقى قابيل على ظهره وتمدَّد إلى جانب الليدي تشاترلي غارقًا في إحساس غريب أقرب إلى خدرٍ لذيذٍ لم يخامره من قبل.

ابتسمت الليدي تشاترلي وقالت وهي مغمضة العينين:

ـ لقد كنت شهيًّا أكثر من عشيقي أوليڤر ميلور. أنت حصان حقيقي يا حبيبي.

لم يعرف قابيل عمن تتحدّث تلك السيدة الشهية. كان يسمع اسم أوليڤر الغريب لأوّل مرّة. كان وقعه شبيهًا بوقع اسم لوسيفر. لم يعرف بماذا يردّ عليها. من ناحية أخرى بدت له كلمة حبيبي عسلية المذاق تمامًا مثل التفاحة التي قطفتها أمه حواء وقدّمتها لأبيه المخلوق الطيني في تلك الحادثة المشؤومة. اعتراه شعور هو مزيج من الخوف والندم. واختلطت عنده صورة ليليث زوجة نوا وعشيقته بصورة الليدي تشاترلي. كانت الشهوة العارمة الخيطَ الوحيد الذي يجمع بين الصورتين. وقع بصره

على حمالة صدر الليدي تشاترلي مرمية هناك. حملها، قلَّبها في يده عدّة مرّات وتمعّن فيها لكنه لم يعرف ما هي. قال لنفسه: ربما هي قبعة توأم برأسين! من يدري؟ تركها بعد ذلك ونزل من السرير بصمت، ارتدى ثيابه على عجل وخرج تاركًا الليدي تشاترلي تغوص غارقة في بحيرة اللذة الآثمة.

مشى قابيل بحذر شديد وعلى رؤوس أصابع قدميه في الردهة الطويلة، فرأى الأبواب موصدة كما كانت.

- الحمد للسيد الأعظم لم يشاهدني أحد.

قال لنفسه مغتبطًا من دون أن يعرف ما سبب تلك الغبطة. لكنه استدرك ساخرًا من نفسه:

- تنسى دائمًا أنّ السيد الأعظم منحك طلسمًا يمنع قتلك. تحسّس أثر سبابته العظيمة يا غبي.

ثمّ نزل سريعًا إلى البهو. هناك سمع جلبةً آتية من الخارج. استطاع من خلال زجاج البوّابة الكبيرة أن يسمع صوت زوربا من دون أن يفهم ماذا يقول. لم يأبه به. ارتمى في مقعد جلدي وثير من مقاعد البهو، ووضع ذراعيه على المسندين وصار يتخيّل انحناءات الجسد الذي زار مملكتَه قبل قليل ويستعيد التفاصيل الحلوة لما جرى.

في هذه الأثناء هشَّم وقعُ خطوات زوربا زجاجَ الصمت الصباحي عند مدخل الفندق.

- ماذا دهاك يا زوربا؟

صاح إدريس من النافذة.

ردَّ زوربا مرعوبًا وهو ينظر إلى أعلى:

- جريمة أخرى. جريمة قتل أخرى. هذا ما كان ينقصنا!

- ماذا تقول؟

- أقول ما سمعَتْهُ أذناك ويرفض عقلك أن يصدّقه. سانتياغو مقتول. تعال وانظر بنفسك.

سمع الآخرون أيضًا ذلك الخبر الصاعق، فقد كان صوت زوربا قويًا بحيث أيقظ المحقّق الفتى آدسو في غرفته في الطابق الثالث.

- جريمة قتل ثالثة!

قال آدسو متأفّفًا وهو يستوي جالسًا في فراشه.

استيقظ بقية النزلاء أيضًا وسرعان ما اجتمعوا في البهو، باستثناء مدام بوڤاري والليدي تشاترلي ودون كيخوته، واتّخذوا أماكنهم التي تعوّدوها.

وقبل أن يجلس آدسو، وهو آخر من وصل إلى البهو، دخل زوربا وفي يده رمح دون كيخوته:

- لقد قتله هذا الهبيل بلا شك. كنت سأقتل أنا ذلك المتحرّش الحقير. لكن دون كيخوته سبقني إليه. أين أنت يا فارس إسبانيا؟ أين أنت أيّها السرعوف الشريف لأقبّل أصابعك النبيلة؟

ضحك إدريس. حاول أن يقول شيئًا لكنّ آدسو لم يمهله فنهض يقول:

- كيف عرفت يا سيد زوربا أنّ سانتياغو مقتول؟ وكيف عرفت بهذه السرعة أنّ دون كيخوته قتله؟ يقضي المحقّقون ساعات وأيامًا وربما شهورًا حتى يصلوا إلى نتيجة مثل نتيجتك، ويدينوا شخصًا بعينه في قضايا القتل، وأنت لم تبقَ في الخارج

سوى دقائق واستنتجت أنّ سانتياغو مقتول وأنّ القاتل هو دون كيخوته؟ ما هو دليلك؟

- الأمر بسيط جدًا يا سيادة المحقّق.

ردَّ زوربا ولفظ عبارة سيادة المحقّق بنبرة ساخرة فاقعة السخرية. لكنّ آدسو تجاهل سخريته وكرّر السؤال:

- هات قل لنا كيف عرفت وما هو دليلك؟

- كما عرفت أنت قاتل غريغور سامسا واتّهمت يوهان، ثمّ ادعيت أنك متأكّد من أنّ قاتل موريتز هو سانتياغو.

- أنا بنيت تصوّراتي على خبرتي في التحقيق. قد أخطئ وقد أصيب. لكن أنت؟ من أين عرفت النتيجة؟

- رمحُ السيد دون كيخوته كان هناك. وأبسط قواعد التحقيق الجنائي هو وجود دليل مادي ملموس يحيل إلى هوية القاتل. أليس كذلك يا سيادة المحقّق؟

- هذا صحيح. لكنّ التحقيقات في كثير من الأحيان دلَّت على أنّ المجرمين هم من يضعون متعلّقات شخص ما في مسرح الجريمة ليلبسوه التهمة.

- ولماذا لم تقل ذلك حين وجدت ورقة استدعاء المسكين يوهان موريتز في المكان الذي قتل فيه غريغور سامسا؟ لماذا اتّهمته على الفور؟

- الأمر مختلف.

- هل تبرّئ دون كيخوته؟

- لا أبرِّئه ولا أتّهمه. على الأقل سأتحقّق منه شخصيًا وأستفسر عن سبب وجود شيء يخصّه حيث تزعم أنّ سانتياغو مقتول.

ـ أنا لا أزعم. أنا متأكّد.

ـ وكيف تأكّدت؟

ـ لقد رأيته مطعونًا برمح السمكة. أحدٌ ما قطع رمح السمكة وطعنه بها.

ـ أحدٌ ما؟ وهل من الضروري أن يكون هذا الـ «أحدٌ ما» شخصًا جرت بينك وبينه مشاحنة صباحية؟

ـ لكنّ رمحه...

ـ قلت لك يا سيد زوربا قبل قليل إنّ وجود متعلّقات شخص ما في مسرح الجريمة لا يعني بالضرورة أنه هو القاتل.

في أثناء هذا الحوار كان إدريس وقابيل أيضًا يتناقشان، فيما أخذ جيوڤاني وراسكولنيكوف والماركيز دو ساد يتنقّلون بنظراتهم بين المتحاورين الأربعة يراقبون تغيّرات ملامح وجوههم ويتابعون تغيّر النبرات من دون أن يتدخّلوا في الحديث.

ـ أقترح أن نخرج لمعاينة الجثة.

قال آدسو، فوافق الجميع من دون اعتراض وخرجوا.

8

- أين دون كيخوته؟

أردف آدسو حين صار الجميع خارجًا قرب الهيكل العظمي لسمكة المرلين العظيمة المنزوعة الرمح.

قال قابيل:

- أظنُّه في غرفته.

دار زوربا حول الهيكل العظمي الطويل حائرًا لا يتكلّم.

نظر إليه الجميع وأخرسهم الذهول. لكنّ إدريس سأل:

- ليس هناك أيّ دم ولا أيّ أثر لجريمة قتل. أين جثة سانتياغو يا زوربا؟

ارتبك زوربا. احمرَّ وجهه. انحنى بذلك الوجه المحمرّ على الأرض والتقط شيئًا لحظه عند هيكل السمكة العظمي:

- أقسم إنني رأيته قبل قليل. كان هنا ورأيت بعيني هذا الرمح مغروزًا في صدره والدم ينزف منه. كان ميتًا. جثة هامدة. أنا أيضًا أسأل معكم: أين جثة سانتياغو؟

- لا بُدّ من أن ينزل الباقون. وبما أنّ دون كيخوته هو المشتبه به الوحيد حتى الآن بناء على شكوك زوربا فلا بُدّ من استجوابه. أليس كذلك يا آدسو؟

كان ذلك صوت الكاتب العجوز ببدلته البيضاء التي تلمع في ضوء الشمس.

لم يعرف المجتمعون كيف ظهر الكاتب فجأة ولا من أين أتى. لكنّ إدريس تقدّم نحوه وقال رافعًا صوته:

- ما يحدث هنا لا يطاق. جرائم قتل متتالية ثمّ اختفاء مثير للجثث! شيء ما يُخطّط له هنا. وبما أننا داخلون في لعبتك أيّها العجوز فمن حقّنا أن نعرف ماذا يجري!!

- معك حق. أنا أيضًا أستغرب ما يحصل. أخشى أن يكون القاتل فعلًا بيننا. لأنني أستبعد أن يأتي القاتل من خارج الفندق. لا أحد يعيش في هذه المدينة المنكوبة أصلًا. حتى الأشباح غادرتها. لقد أحكمتُ خيوط اللعبة وأزعم أنني أمسك بها كلها ولا أسمح لأحد أن يفسد لعبتي الروائية هذه سواء من خارج الرواية أو من داخلها.

- اعذرني إن قلت لك إنّ ما تقوله ادّعاء فارغ. حصلت جرائم عدّة وأنت مُصرٌّ على أن تُكرِّر كلّ مرّة قولك إنك ممسك بخيوط اللعبة. لعبتك هذه بلا خيوط أيّها الكاتب المبجَّل. صرنا نتساءل كلّ يوم ومعنا حق: من التالي؟

- لا بأس يا إدريس. تحمَّل قليلًا. بلا شكّ سنصل إلى مخرج من هذه المتاهة. صدّقوني أنا أيضًا معكم وأشارككم هذا التيه. والآن ليناديِ أحدكم السيد دون كيخوته. فربما يفيدنا استجوابه في الكشف عن هذه الجرائم.

- أنا سأذهب إليه.

قال راسكولنيكوف بحماسة ودخل الفندق ليأتي بعد قليل بصحبة دون كيخوته وهو بدون المغفر والدرع والترس وسائر زيِّه المعروف. كان الفارس الشهير يرتدي زِيًّا غريبًا أصاب الجميع بالدهشة ودفع قابيل والماركيز دو ساد إلى القهقهة.

- يمكنك يا آدسو مباشرة الاستجواب ريثما أذهب إلى الحانة لترتيبها من أجل

سهرة المساء. لن أكون حاضرًا جلسة الاستجواب هذه حتى لا تقولوا إنّ الكاتب العجوز يتدخّل في السرد ويفسد الأحداث. لقد قلت لكم منذ البداية إنكم أحرار في التصرّف، وقد أخرجتكم من أقفاص الروايات إلى فضاء روايتي الفسيح لتقولوا ما لم تقولوه وتفعلوا ما لم تفعلوه في حيواتكم السابقة بحرية تامّة. وها أنتم ترون دون كيخوته دي لا مانشا في هذا الشكل الطريف. هل تتذكّرون أنني قلت لكم منذ اليوم الأول، أيْ يوم أقمنا حفل التعارف إنكم ستتصرّفون كما يحلو لكم؟ ثمّ أكّدتُ لكم الأمر حين اجتمعنا في الحانة بعد ثلاث ساعات من غروب الشمس ليلة اكتشاف مقتل يوهان موريتز في غرفته مخنوقًا بالوسادة؟ هل تتذكّرون أنني أبديت لكم رغبتي في نسف توقّعات القرّاء عبر منحكم الحرية المطلقة كشخصيات روائية؟ هل تتذكّرون؟

- نعم. نتذكّر. لقد قلت ذلك. لم يمضِ على ذلك الاجتماع المسائي وقت طويل حتى ننسى. هذا صحيح.

سَرَت همهمات المتحلّقين حول الهيكل العظمي لسمكة سانتياغو، فرفع الكاتب العجوز عكّازته القرمزية إلى أعلى وحيّاهم بثغر بسّام وقال:

- إذن إلى اللقاء مساءً.

- إلى اللقاء.

ردَّد الجميع كأنهم أفراد جوقة من المنشدين الكنسيين.

- كيف تفسّر يا دون كيخوته وجود رمحك في مكان يقول زوربا إنه رأى فيه سانتياغو مطعونًا برمح؟

- ليلة أمس نظرت من النافذة فرأيت شبحًا يقترب من الفندق. دقّقت في الشبح. كان واضحًا أنه لصٌّ مسلّح. رأيته في تلك الأضواء التي تشعّ على الواجهة. طلبت

منه أن يقف. لم يمتثل لأمري. خفْتُ أن يؤذينا فسدّدت إليه الرمح ورميته به. هرب اللصّ وقلت لنفسي سأنزل صباحًا لآخذ رمحي.

- ولماذا لم تخبر أحدًا بذلك؟ لماذا لم تشهد أحدًا من جيرانك على الحادث؟

- لقد أخبرت سانتياغو. كان الوحيد الذي ما يزال يسهر. الباقون كانوا يشخرون. ألم يسمع بعضكم شخير بعض أيّها السادة؟

لم يُجب أحد. كان وجه دون كيخوته ممتقعًا وبدا شديد الهزال في ثيابه الجديدة. فواصل المحقّق الشاب استجوابه:

- وماذا كان يفعل سانتياغو هناك؟

- سانتياغو رجل شهم شجاع، صيّاد عنيد ولا يخاف. قال لي: ابق هنا وسأنزل أنا لأرى من هذا اللصّ وأعيد لك رمحك.

- متى حدث ذلك؟

- بعد منتصف الليل قريبًا من الفجر.

- وهل راقبته من النافذة.

- ولماذا أراقبه؟

- بدافع الفضول.

- أنا أكره فضول المحقّقين.

وفجأة، جاءته نوبة شديدة من السعال. لم يتوقّف سعاله. فارتمى متهالكًا على ضلع من أضلاع سمكة سانتياغو.

لم يتركه آدسو. وقف بجانبه وقال:

- لولا فضول المحقّقين لقُيِّدَت كثير من الجرائم.

- يا آدسو، أيّها الشاب الغِرّ، هل تعتقد أنك بمرافقتك لمحقّق شهير ستصبح مثله؟ النحاس لا يصبح ذهبًا ولو جاور الذهب ألف عام. أما أنا، فقد انكسرت أضلاعي بسبب فضولي الغبي. ألم تقرأ رواية ثربانتس؟

- لا. لم يكن ثربانتس قد كتب روايته في عصرنا. لم يعرفك أحد في ذلك الزمان الغابر.

- اللعنة.

قال دون كيخوته وجاءته نوبة سعال أشدّ من الأولى.

أخرج منديلًا من جيبه ووضعه على فمه حين سعل. ولـمّا نظر في المنديل شهق:

- يا إلهي. إنه دم. ستقتلني الحمى.

نظر إليه الآخرون بإشفاق. عَجِبوا لأمره. لقد كان يذوي في تلك اللحظات. يذوي مثل نجم أخير في السماء داهمه ضوء الفجر. ومع أنه انهار فجأة فقد بقيت عنده طاقة للكلام وصار يتحدّث كأنه يدوِّن وصيّته الأخيرة:

«إنني أموت أيّها الرفاق. نعم إنني أموت. أموت مثل أي نجم عند شروق الشمس. لا تعجبوا. الموت هكذا. يطرق بابك حين لا تكون بحاجة إلى ضيوف. يأتيك ضيفًا ثقيلًا يطلب منك الرحيل في اللحظة التي تضع فيها حقائبك قادمًا في غاية الإرهاق من سفر طويل تتوخّى بعده بعض الراحة. سأموت. أعرف هذه الحمى اللعينة. أصبت بها من قبل. ليست لي وصية إلَّا أن تنقلوا ما جرى لي إلى حبيبتي دولثينيا دل توبوسو. انقلوا لها أنني بقيت على حبّها وظللت آمل أن ألتقيها حتى آخر نفس. فلتغفري لي أيتها الأميرة الرائعة. أما حصاني الحبيب الوفي روسينانتي،

فابحثوا عنه، فإن لقيتموه أو عاد فسيعرف كيف يتصرّف. اتركوه براحته أيّها الرفاق. أنا لست حزينًا على شيء مثل حزني على روسينانتي الذي رافقني في الحل والترحال ولم يتركني حتى في أحلك الظروف. إنني أفتقده كثيرًا في هذه الساعة. أفتقده أكثر من سانشو الذي يكفيه حماره ويستطيع الحياة بدوني أينما كان. اغفروا لي أنتم أيضًا أيّها الرفاق. واعلم أيّها الشاب آدسو أنني لم أقتل سانتياغو. أنا لست قاتلًا يا فتى. لقد ثُرتُ على القتلة والنصّابين والمرابين والجشعين وقاتلت بمفردي جيوش الأشرار. كنت دائمًا منحازًا إلى المهمّشين الفقراء من أمثال سانتياغو. انتصرت للأرامل وحاولت أن أجعل هذه الدنيا أكثر عدلًا وأقل قسوة. سعيت إلى بناء عالم جميل فاصطدمْتُ بالقبح في كلّ مكان. اغفر لي يا زوربا حديثي الجاف معك هذا الصباح. اغفروا لي جميعًا. اطلبوا من السيدتين بوڤاري وتشاترلي أن تغفرا لي أيضًا. لقد قضينا معًا وقتًا جميلًا. اغفري لي أيّتها السماء. اغفر لي خطاياي أيّها السيد الأعظم».

بقيت كلمة «أيّها السيد الأعظم» معلّقة على شفتيه مثل نرجسة برية في أوائل الصيف تقاوم الجفاف وتصرّ على أنّ الربيع لم يرحل. لم يطل به الوقت حتى مال على جنبه الأيمن بصمت ثمّ انقطعت عنه كلّ حركة. وحين سقط دون كيخوته هرع إليه آدسو مذهولًا وهو يرسم إشارة الصليب. وضع رأسه على صدره وجسَّ نبض رسْغه الأيسر لدقيقة من الزمن ثمّ قال بجزع:

- لقد مات.

رسم الجميع، ما عدا قابيل وإدريس، إشارة الصليب على صدورهم. تأثّر آدسو كثيرًا لورود اسمه في خطبة الموت القصيرة لدون كيخوته. تقدّم نحوه، وانحنى عليه قليلًا ثمّ استقام وقال بصوت متهدّج:

- فلتنعم روحك بالسلام الأبدي أيّها الفارس. لم أشأ أن أسيء إليك. كنت أمارس

وظيفتي فقط. لو اشتبهتُ حتى بمعلّمي ويليام العظيم لحقّقت معه أيضًا. فليغفر السيد الأعظم لي ولك.

وقال قابيل بصوت خلا من أي نبرة حزن:

- لنحفر قبرًا.

كانت الأرض رخوة. رخوة جدًا ولينة مثل جبنة طرية. حمل زوربا رمح دون كيخوته ورسم مستطيلًا بطول مترين وعرض متر وقال:

- فلنحفر هنا.

وسرعان ما بدأ المجتمعون يحفرون القبر بما تيسّر لديهم من أدوات: رمح دون كيخوته، وأضلاع سمكة سانتياغو ورمحها، عصا آدسو وفأسًا لم يعرف أحد من أين حصل عليها راسكولنيكوف. خلال ساعة أو أقل أصبح القبر جاهزًا. كان آدسو يتمتم بصلوات غير مفهومة. يرفع ذراعيه للسماء كأنه يريد احتضان شيء ما هناك في الأعالي، ثمّ يبسطهما كجناحين، يرسم إشارة الصليب بين فترة وأخرى ويهزُّ رأسه مع كلّ تمتمة. وقف قابيل على طرف القبر وحدّق في قاعه مستغربًا ثمّ قال لنفسه:

- لماذا يحفرون هكذا عميقًا؟

وتذكَّر يوم دفنَ أخاه هابيل. كان أمرًا صعبًا جدًا. لم يفهم في البداية لماذا لم يعد أخوه يتحرّك أو يتكلّم بعد ضربه بفكِّ الحمار. فكّر كثيرًا لكنه لم يعرف ماذا يفعل! حام حول الجثة الباردة التي نزفت من جهة الرأس دمًا غزيرًا سال على الأرض مثل ساقية صغيرة ثمّ فكّر في الأمر من دون أن يهتدي إلى حلّ. لم يجرؤ أن يسحب الجثة خلفه ليأخذها إلى مكان آخر. خاف عليه من ضواري البرية، ولحسن الحظ كان كلبه هناك يحرس الجثة. دفعته الغريزة إلى إزالة كلّ ما يحيل إلى جريمته. حتى فكُّ

الحمار الذي شجَّ به رأس أخيه أخفاه في مكانه السابق. كان يريد أن يخفي جريمته:

«دُفِن أخي بدون طقوس غريبة كالتي يمارسها آدسو الآن. دفنه والدي مهتديًا بغراب فعل الفعلة نفسها. دفنه وبكى فوق قبره هو وحوّاء وناحا طويلًا، بينما هربتُ من المكان كأنني أريد تكذيب خبر الموت. حاولت الابتعاد عن المكان في سعيٍ يائس لكي لا يصدّق أحد أنني قتلته. كانت تلك أوّل مرّة نقف فيها وجهًا لوجه مع الموت. سفكَ دماءٍ حذَّر أهلُ السماء السيدَ الأعظم منه دون جدوى. ولم يسبق لي أن اختبرت لحظة قاسية كتلك اللحظة. ولا أعرف من وسوس لي بكلّ تلك التصرّفات الغريبة عقب ارتكابي قتل أخي! كانت فكرة الدفن رائعة. فهمنا أنّ الغراب مرسلٌ من لدُن السيد الأعظم لينقذنا من هاوية الحيْرة. لو لم ندفنه لأصابني مشهد الجثة المرمية في العراء بالجنون. الدفن استتار الموت في وضح الحياة. الدفن تجميلٌ للموت. الدفن سعي لنسيان الموت وتخفيف ألمه. وكما توسّلَ أبواي ورقَ الجنة ليواريا سوأتيهما فقد توسّلا بفضل الغراب الحكيم حفرة ليواريا جريمتي! أعتقد أنّ الجثة بقيت لفترة طويلة قبل أن يأتي الغرابان ليقوما بتمثيليّتهما. أعتقد أنّ الرائحة الكريهة فاحت بسبب تحلُّل جثة أخي. ازدادت تلك الرائحة لحظة بعد لحظة حتى صارت خارج حدود التحمّل. وهكذا جاء الدفن حلًّا للقضاء على الرائحة. كان دفنًا بلا طقوس ولا صلوات. لقد اعتقدت على مدى أيام عدّة أنّ أخي القتيل سينمو ثانية مثل البذور التي نثرتُها على الأرض فنمت وأينعت. زرت قبره شهرًا بعد شهر. لم ينبت أخي القتيل. ما وجدته على القبر بعد أمطار ربيعية لم يكن سوى حشائش وأعشاب كنت أراها لأوّل مرّة.

استعرض قابيل تلك الحادثة التي أودت بأخيه، أطرق برأسه حزينًا ثمّ واصل يتذكّر:

- لم يعزِّني أحدٌ بموت أخي هابيل. هربْتُ لا ألوي على شيء. تركت أبي وأمي في مصيبتهما ينوحان على القبر. هِمْتُ على وجهي في البرية الخالية. لم يكن الإنسان

قد عرف شيئًا اسمه العزاء. ابن آدم عرف القتل قبل أن يعرف العزاء. عرف الحزن مُذ عرف الموت. لم يكن هناك من يثأر لدم أخي. ولم يأتِ أحد ليعزِّيني بكلمات كالتي سمعتها الآن من رفاقي بحقّ دون كيخوته دي لا مانشا. لكنني ورثت أخي بالرغم من كلّ ما جرى. قتلته وورثْتُ قطيعه الذي فضَّله السيد الأعظم على زرعي. ورثت كلّ ما يملك إلَّا الثأر لدمه للحفاظ على استمرارية ذرية آدم. لقد سننْتُ للبشر من بعدي سنَّة قبيحة: اقتل لترث القتيل. ثمّ تطوّر البشر بعد ذلك حين تناسلوا وملأوا ظهر الأرض فصاروا يجيِّشون الجيوش ويشنّون الحروب، يقتل بعضهم بعضًا ويرث جيش القتلة الغزاة، ليس فقط ممتلكات المقتولين وأراضيهم ودورهم ومساكنهم، بل يسبون نساءهم أيضًا. القتلة ورثة المقتولين في كلّ شيء، فمن سيرث هذا المسكين الذي واريناه الترابَ من توّنا؟

أما إدريس، فقد انزوى غير بعيد وصار يراقب صلوات آدسو وهو يضحك في سرّ:

- ابن آدم يعتقد أنه ببعض الأعمال المضحكة سيحقّق الراحة لمن ماتوا! ألا يعرف أنّ الأصل في الدفن تخلُّصٌ من تبعات تحلُّل الجثة ورائحتها الكريهة التي لا تحتمل؟ لم يكن آدم أو أدهم ليدفن هابيل أو هُمام لولا أنّ رائحة كريهة صارت تفوح من الجثة. ولو بقيت الجثة على حالها من دون تحلُّل لكان الشاب القتيل عزاءً لأمه التي أغويتُها وأخرجتها من الجنة.

وفجأة رفع صوته:

- أرجو أن تسمعوني جميعًا. سأخرج من هذه المهزلة. في الحقيقة سرَّني وجودي بينكم والتعرّف إليكم. كنتم قريبين جدًا إلى قلبي، لكن لم تعجبني هذه الألاعيب التي يقوم بها العجوز صاحب العكّازة القرمزية والبدلة البيضاء. لا أعتقد أنه سيقوم في آخر الأمر بشيء مفيد. سأغادر قبل أن أتحوّل إلى قاتل أو مقتول. أنا لم

أخلق لكي ألعب هذه الأدوار السخيفة في هزليات سمجة. مهمّتي أعظم بكثير. لم يفهمني بنو آدم ولن يفهموني. كانت محنتي كبيرة مع أبيهم وصارت أكبر مع أبنائه. لم أقبل أن أصبح جزءًا من الأُلْهيَّة الكبرى. أقصد لعبة خلق الإنسان الأوّل ليستعمر هذه الأرض. نأيت بنفسي عنها بل رفضتها لأنني عرفت مآلاتها الكارثية بخلاف رفاقي الذي ناصروني في البداية وتنبّأوا مثلي بما سيفعله هذا المخلوق من الطين المهين، لكنهم تراجعوا وطأطأوا رؤوسهم استسلامًا للمشيئة العظمى. بأي حال، لقد فات أوان ما أقوله الآن ولن ينفعكم نصحي. الوداع أيّها الأصحاب.

أدار إدريس ظهره للجمع المحتشد حول القبر ومضى من دون أن يردَّ عليه أولئك المشغولون بدفن رفيقهم الفارس ذي الوجه الحزين. ومع اختفاء إدريس في أعماق الغابة هال آدسو والآخرون آخر حفنة من التراب على الجثة، فاختفت في باطن الأرض، ورويدًا رويدًا ارتفعت فوق القبر ما يشبه رابية صغيرة.

نفض المشيِّعون أيديهم من التراب وتذكَّروا أنّ إدريس ودّعهم من دون أن يردّوا عليه:

- هل ترون؟ لقد غاب إدريس هناك. إنه شجاع دائمًا.

قال زوربا وهو ينظر في بقعة محدّدة من الغابة وتبعه الآخرون في التحديق في البقعة ذاتها، ما عدا الماركيز دو ساد.

كانت المفاجأة عظيمة. من البقعة التي غاب فيها إدريس لاح شبح دابَّة تهرول صوب مكان التشييع. لم يكن جيوڤاني بحاجة إلى ذكاء خارق ليعرف أنّ القادم ليس إلَّا حصان دون كيخوته الذي فقده. لقد صارت عيناه بسبب التحديق في الصحراء الخالية ليلًا ونهارًا وعلى مدى أعوام طويلة خارقتين، يرى بهما الأشياء مهما كانت بعيدة ويميّزها قبل أن يراها الآخرون:

- عجيب! إنه روسينانتي.

لاحت من الماركيز دو ساد في تلك اللحظة نظرة رجاء إلى نافذة مغلقة تبدو من خلف زجاجها الستائر المنسدلة، فخمَّن أنها نافذة غرفة مدام بوڤاري. كان ينتظر قبولها به زوجًا عبر إشارة بينهما اتّفقا عليها وهي أن تفتح النافذة حتى تصطفق درفتاها إيذانًا بالقبول. لكنّ صوت جيوڤاني جعله ينظر مع الآخرين إلى الغابة حيث كان هناك بالفعل حصانٌ هزيل يعدو باتجاه حشد المشيّعين.

9

عندما اقترب الحصان من حشد المشيّعين، عرفوا جميعًا أنه روسينانتي. روسينانتي بهزاله المعهود ونظرات عينيه الحزينتين دائمًا، كان بلا سرج، يهتزّ عرفه المجدول المائل على أحد جانبيه، ويتدلّى ذيله من دون أن يميل يسارًا ويمينًا. ظلّ حتى وصل إلى القبر فوقف عنده. حرَّك قائمته الأمامية اليمنى وضربها على الأرض الرخوة مرّتين أو ثلاث مرّات، حتى بدا كأنه يحثو التراب على قبر صاحبه. لمع الحزن في عينيه ثمّ ما لبث أن أناخ على حافة القبر واضعًا رأسه عند رأس صاحبه.

قال الماركيز دو ساد:

ـ هذا حصان وفيٌّ حقًا. إنه حصان أصيل. ما رأيكم أن أذهب لآتي بمتعلّقات الراحل دون كيخوته، مغفره، درعه، وثيابه التي كانت عليه لحظة جاء إلى هذا المكان أوّل مرّة؟

ـ أوافقك الرأي. لا ينبغي أن تكون أشياء الفارس بعيدة عنه حتى في القبر.

ردّ زوربا.

واستحسن الباقون تلك الفكرة. لكنّ راسكولنيكوف سأل:

ـ لقد دفناه وانتهى الأمر. لو جئنا بأشيائه قبل الدفن لكنا وضعناها معه في القبر. أعتقد أن الأصول كانت تقتضي ذلك. أما الآن وقد صار صاحبنا تحت التراب

فقد فات الأوان.

- ستعرف فيما بعد يا صديقي.

قال الماركيز دو ساد وهو ينظر إلى أعلى محدقًا في النافذة التي ظلّ يعتقد أنها نافذة غرفة مدام بوڤاري. ثمّ دخل الفندق.

وبينما هو يصعد الدرج التقى بمدام بوڤاري في ردهة الطابق الأوّل. ابتسمت له. ابتسم أيضًا وبادرها بالتحية:

- صباح الخير يا قطرة الندى. انتظرتُ أن تفتحي النافذة يا إيمّا. كنت أنتظر الإشارة.

- إشارة؟ إشارة ماذا يا حبيبي؟

- ألم تقولي البارحة إنّ أباك أخبر الطبيب شارل أنّ فتْح نافذة المنزل على مصراعيها سيكون إشارة موافقتك على الزواج منه؟ لقد قلتِ لي إنك ستكرّرين الأمر وسيكون ذلك إشارة منك بالموافقة على الزواج مني؟

- أووه حبيبي. هذا صحيح. لكن لم أعرف أنك في أسفل. هل ستنزل ثانية؟

- نعم. دون كيخوته مات وسآخذ متعلّقاته إلى قبره.

شهقت مدام بوڤاري ورسمت بيدها الناعمة إشارة الصليب على صدرها الذي يطفح أنوثةً وإغراءً تحت صدريتها الزهرية الضيّقة. ودَّعها الماركيز دو ساد بقبلة حميمة ثمّ وعدها بعودة سريعة وصعد إلى غرفة دون كيخوته. لم تمضِ لحظات حتى حمل كلّ شيء في حضنه وعاد ليهبط الدرج سريعًا ويهرول متّجهًا إلى القبر.

نهض الحصان الحزين وسط استغراب الجميع، ومشى صوب الماركيز دو ساد القادم من الفندق. وحين وصل إليه صهل صهيلًا خافتًا أقرب إلى البكاء وصار

يمسح رأسه بمتعلّقات صاحبه الفارس الجوّال دون كيخوته.

- روسينانتي يشمّ رائحة صاحبه. لقد ميّزها بدون شك.

قال راسكولنيكوف فوافقه آدسو بقوله:

- لو لم تكن هذه الدواب عجماء لكانت من أفضل المحقّقين. كان لي كلب يستطيع تمييز...

لم يكمل آدسو جملته. قاطعه الماركيز دو ساد وقال لراسكولنيكوف:

- حصان وَفيٌّ مثل روسينانتي أولى بأن يرث متعلّقات صاحبه. سنضع هذه الثياب الحربية، درعه وخوذته ورمحه على صهوة الحصان.

- ثمَّ؟

- ثمَّ سنترك الحصان حرًّا. هو يتكفّل بالباقي. هذه وصيّة دون كيخوته أصلًا.

- نعم صحيح.

رد آدسو وأضاف:

- الحيوانات ذكية جدًا. كان لي كلب يستطيع تمييز...

قال قابيل مقاطعًا:

- دعنا من كلبك الآن. علَّم الغرابُ أبي آدم كيف يدفن أخي القتيل. من يصدِّق ذلك؟

- وحمامة نوح أرشدته إلى ظهور اليابسة وانحسار الطوفان.

قال راسكولنيكوف وهو يساعد الماركيز دو ساد على وضع متعلّقات دون كيخوته على ظهر الحصان ويشدّها بالأحزمة لئلّا تقع. كانت ضربةٌ خفيفة على كفل

روسينانتي كافية بأن ينطلق مبتعدًا صوب الغابة التي قدم منها قبل قليل.

تابع المشيّعون وقع حوافر روسينانتي بنظراتهم المستغربة. كانت خطواته وئيدة كأنه يمشي على إيقاع موسيقى جنائزية، فيما راح آدسو يفكّر في كلبه الذي يستطيع تمييز أشياء نسيها بسبب مقاطعة قابيل المستمرّة لجملته وبتْرها مرارًا.

عاد الجميع إلى الفندق يتقدّمهم الحزن. كانوا صامتين. بدا زوربا لأوّل مرّة حزينًا صامتًا. غادرتْه الحيوية المعهودة وروح الدعابة. وحين وصلوا إلى بهو الفندق الفسيح، استراح الجميع على الأرائك الوثيرة. إلّا هو، فقد صعد إلى أعلى محني الرأس بادي الحزن لا يريد أن يتكلّم.

لم يطل غيابه. نزل بعد لحظات وبصحبته مدام بوڤاري والليدي تشاترلي وفي يده السانتوري.

كان ما يزال حزينًا بالرغم من أنّ امرأتين تمشيان على جانبيه.

- أحسنت يا زوربا. قليل من الموسيقا قد تريحنا بعد ما عانيناه من نَصبٍ هذا الصباح.

قال راسكولنيكوف، فعقّب الماركيز دو ساد:

- هل تستطيع يا زوربا أن تعزف لنا لحن L’offrande à la liberté؟

دعا زوربا السيدتين إلى الجلوس على جانبيه على أريكة واسعة ثمّ سأل الماركيز دو ساد باستهجان:

- ما هذا اللحن؟ ماذا تعني؟

- هذه من أغاني الثورة الفرنسية.

- أنا لا أحب أغاني المقاصل. ولا أحب لحنًا يسيل على جوانبه الدم. الثورات أكاذيب.

- إذن اعزف لنا مقطعًا من La serva padrona.

قالت مدام بوڤاري بدلالٍ متكلّف.

تجهَّم وجه زوربا. وضع السانتوري جانبًا ثمّ تنقّل بنظراته الساخطة بين الماركيز دو ساد ومدام بوڤاري وقال:

- السانتوري - أيّها السادة - حيوان وحشي بحاجة إلى فسحة من الفضاء الفسيح. إنه ينطلق بحرّيته متى أراد هو لا متى ما طلب منه الآخرون. الفن يا سادة لا يأتي بناء على طلب أو استدعاء. الفن فيض. يفيض كما يفيض نبيذ التفاح الفائر حين يسكبونه في كأس.

كانت الليدي تشاترلي ساهية عن ذلك الحديث، تنظر إلى قابيل وينظر إليها ويتذكّر كلّ منهما المتعة العظيمة التي منحها للآخر في غرفة زوربا.

- والآن؟

فجأة قال آدسو.

ردَّ جيوڤاني:

- الآن لا شيء. سنترك الأحداث تمضي كما تشاء، تمامًا كما تركنا روسينانتي يمضي في حال سبيله. لن ننتظر شيئًا. يبدو أنّ الإنسان لا يمشي خطوة من دون أن تكون مُقدّرة عليه. لذلك فإنّ كلّ ما نفعله عبث. أصلًا نحن لا نفعل شيئًا. نحن ننفّذ أوامر خفية.

- هل تعتقد أنّ المجرم قد شبع من القتل؟ ألن يرتكب جرائم أخرى؟ أتساءل

خيفة أن يكون أحد الباقين ضحيّته التالية.

- وماذا تقترح؟

تدخّل راسكولنيكوف:

- أعتقد أنّ المناوبات الليلية ستفيد في حمايتنا. كلّ ليلة يحرس شخصان هذا الفندق ويراقبان.

- مرّة أخرى... المراقبة اللعينة والانتظار!

قال جيوڤاني، فردَّ آدسو:

- ليس أمامنا غير هذا الحلّ. وإلَّا فإننا سنُباد قريبًا. لقد قتل ثلاثة منّا ومات الرابع حتف أنفه. وهذا يشكّل ثلث عددنا تقريبًا.

- وإلى الآن، وبالرغم من تحرّياتك، فإنك لم تكتشف القاتل.

عقَّب راسكولنيكوف على كلام آدسو ساخرًا، فغاصت رأس الفتى البنديكتي بين كتفيه الصغيرتين ولم يردّ.

قال قابيل:

- أقترح أن يقوم شخص آخر بالتحقيق. شخصيًا لم يعجبني أداء المحقّق الشاب آدسو. معذرة أيّها الفتى، أنا صريح. كنت صريحًا مع السيد الأعظم أيضًا. القضايا الكبرى لا تتحمّل الهمهمات والكلام الغامض.

- لقد فعل ما بوسعه. الجرائم المعقّدة لا تنكشف تفاصيلها سريعًا. ربما لو أوكلنا الأمر إلى شخص آخر لوصلنا إلى خيوط مهمّة. أو لو أننا بحثنا عن الجثث فقد نهتدي إلى ما يوصلنا إلى القاتل أو القتلة.

قال زوربا من دون أن يغادر الحزنُ نبرةَ صوته أو ملامح وجهه.

عاد راسكولنيكوف إلى مقترَحه:

- المناوبات الليلية وحراسة الفندق. هذا ضروري، فالمجرمون يحومون حول مسرح جريمتهم ويعودون إليه بين الفينة والأخرى. أليس كذلك يا آدسو؟

لم يردّ آدسو. كانت رأسه ما تزال غائصة بين كتفيه. قال جيوڤاني:

- أقترح أن تكون مناوبتي هذه الليلة. من يرافقني؟

- أنا. أرجو أن تقبلني رفيقًا لك.

قال آدسو ليتغلّب على خجله وخيبته. فرحّب به الضابط جيوڤاني دروغو كنوعٍ من المواساة.

عاد آدسو للكلام وقال:

- لو كان كلبي هنا لنفعنا كثيرًا. إنه كان يستطيع تمييز...

قاطعه قابيل:

- لكن عليكم أن تنتظروا الكاتب العجوز واقتراحاته. ربما له رأي آخر.

ثمّ نهض ليصعد إلى غرفته.

- سيجتمع بنا الليلة بأي حال.

قال زوربا متثائبًا.

نهضت الليدي تشاترلي أيضًا، فصَدَرَ من ثوبها الساتان الأزرق الطويل حفيفٌ مثير رافق مشيتها حتى باب غرفتها في الطابق الثالث.

وسرعان ما نهض آدسو وجيوڤاني وراسكولنيكوف وصعدوا إلى غرفهم. أما زوربا، فقد غشيَه نعاسٌ مفاجئ فنام في أريكته حيث يجلس وهو يحتضن السانتوري من دون أن يفارق الحزنُ العميق ملامح وجهه.

في هذه الأثناء غادر الماركيز دو ساد ومدام بوڤاري متشابكي الأذرع بهوَ الفندق لينزلا إلى الحانة الصامتة. هناك جلسا إلى طاولة خالية في زاوية معتمة في آخر الحانة، وصارا يتساقيان كؤوس الغرام لساعة من الزمن، يتبادلان القبلات الحميمة والعناق الحار ويقطفان الثمار الشهية، كلّ من جسد صاحبه، ثمّ خرجا من الفندق ليتمشيا قريبًا من الغابة الغربية وهما يشعران بسعادة غير مسبوقة تغمر روحيهما.

قال الماركيز دو ساد وهو يضغط بذراعه على خصر مدام بوڤاري اللدن:

- لم يصدف أن أحببت امرأة كما أحببتك يا إيمّا. لقد أنسيتني العالم الذي نبذني واحتقرني.

- معقول؟ ما هذا العالم الذي يحتقر نبيلًا رقيقًا مثلك؟

- احتقرني العالم لأنني كشفت أكثر الأعماق ظلمة في النفس البشرية. لقد كتبت رواية «مئة وعشرون يومًا في سدوم» في ثلاثة وثلاثين يومًا وأنا في سجن الباستيل. تمامًا كما كتب ثربانتس قصة هذا الفارس المسكين دون كيخوته الذي دفنَّاه اليوم وهو في السجن. السجون أفضل مكان لكتابة الروايات. ولقد كتبتُ في هذه الرواية ما يمكن أن يقوم به الإنسان من فظائع لتحقيق لذَّاته الشخصية. صوَّرت الإنسان في أقسى صوره فالتبس الأمر على الناس واعتبروني مرتكبَ ما جاء في روايتي من جرائم فعلًا.

- أنا قرأت روايات كثيرة. وقرأت روايتك أيضًا. في روايتك كمٌّ هائل من القسوة والقرف. لكنني مع ذلك لم أحقد عليك.

- لكنهم حقدوا عليَّ يا حبيبتي إيمّا.

- فقط لأنك كتبت رواية مخالفة للأخلاق العامة؟

- كنت ثوريًا مناهضًا للملكية. سجنوني واتّهموني بارتكاب الجرائم. أنا ارتكبت المعاصي هذا صحيح، وقد تخيَّلت بكتاباتي ما لا يمكن أن يخطر على بال من فظاعات في هذا المجال، لكنني بالتأكيد لم أفعل كلّ ما تخيّلتُه ولن أفعل أبدًا. أنا فاجر، ماجن، خليع، هذا صحيح وأعترف. لكنني لست مجرمًا أو قاتلًا يا إيمّا.

- بالتأكيد لست قاتلًا يا حبيبي وإلّا لما أحببتك.

- لو كنت قاتلًا لوضعوا رأسي تحت المقصلة. أعدموا الملك والملكة وقطعوا رأسيهما وفعلوا ذلك حتى مع رجال الثورة بسبب أتفه التّهم، فهل كانوا سيشفقون عليَّ لو كنت فعلًا مرتكب تلك الجرائم الفظيعة؟ أنا مجرم في الكتابة. روايتي مجرمة، خيالي مجرم. شخصياتي معتوهون مهووسون بالجنس الشاذ، لكن ما كتبته على تلك الورقة الطويلة في الباستيل كان نوعًا من التخييل. تصوير قبح وبشاعة جريمة لا يعني أبدًا بشاعة من يقوم بذلك. هل المخلوق الوحش الذي أبدعه ڤيكتور فرانكشتاين في رواية ماري شيلي حقيقي؟ هل حقًا أنّ النحّات بچماليون تزوّج من منحوتته چالاتيا بعد أن قامت ڤينوس بنفخ الروح فيها وأحيتها؟ لا يميز كثيرون الفنَّ من الحقيقة. لا يعرفون قدرة المبدعين على تصوير أكثر الأشياء غرابة على أنها حقيقة لا تقبل الشكّ. أنا أحبك يا إيمّا.

تهدَّج صوت الماركيز دو ساد فصمت.

حاولت مدام بوڤاري أن تواسيه فقالت:

- لا عليك يا حبيبي. لقد كتب غوستاڤ فلوبير قصّتي بكل ما في شخصيتي من تعرّجات ونتوءات. فهل نتّهمه بأنه المسؤول عن كلّ ما ارتكبته أنا؟ أنت بريء أيّها

الماركيز الجميل الشهي.

شدّ الماركيز دو ساد على يدها اللطيفة، قبَّلها قبلة خاطفة وتابع سيره في طريق العودة متأبطًا ذراعها إلى الفندق. لمعت عيناه وبدا أنهما تقاومان ذرف الدموع. ثمّ قال بنبرة حزينة:

- أنتِ أوّل إنسان يفهمني. أرجوكِ يا إيمّا. اقبلي الزواج مني. سأكون زوجًا صالحًا. هذه فرصتي الأخيرة إذ لا أعتقد أنني سأظهر في رواية أخرى هذا الظهور المخالف للتصوّرات المسبقة عني. أنا أبحث عن إنسانة أعيش معها الحب الزوجي الصافي. حبًا بريئًا رومنسيًا بعيدًا عن كلّ ذلك العنف والشذوذ الذي عجَّت به روايتي اللعينة.

- سأجيبك الليلة يا حبيبي. فأنا أيضًا بحاجة إلى صورة جديدة أظهر فيها. لا أريد لا الانتحار ولا ارتكاب الزنا.

- إذن هل سأرى درفتَيْ نافذتك تصطفقان كما فعل أبوك حين وافق على زواجك من الطبيب شارل؟

- ليت أبي لم يوافق على ذلك الزواج المنحوس. كلّ تعاستي بدأت منذ تلك اللحظة...

- لكنك لم تجيبيني.

- سأجيبك هذا المساء حين تغرب الشمس وقبل أن يجمعنا الكاتب العجوز في الحانة.

- سأكون خارجًا وأراقب النافذة.

قال ذلك بصوت رقيق، ثمّ جذبها إلى صدره وغرق معها في نعيم قبلة طويلة

أمام بوّابة الفندق الزجاجية الكبيرة.

10

كان قابيل وحيدًا في غرفته، بل وحيدًا في الطابق الثاني من الفندق الكبير بعد رحيل إدريس ومغادرته مهزلة الكاتب العجوز كما سمَّاها في خطبة الوداع. بدأ وهو مستلقٍ على سريره يستعرض في مخيّلته الجسدَ المتمرّد العنيف للسيدة تشاترلي. الجسد الفاتن الذي خاض في ثناياه بعض الوقت مستمتعًا بتضاريسه المثيرة في غرفة زوربا. تخيّلَ النهدين الناعمين الثائرين بالحلمتين الشبيهتين بزهرتي بنفسج، تذكّر الفخذين الصقيلين المرصوصين اللذين يحصران في نهايتيهما عند الحوض الكبير مثلّثَ المتعة الذي تنتهي زاويته الألذُّ أسفل غابة من الزغب الكثيف اللطيف. تخيّلَ الردفين المكوّرين بإتقان، ردفان لم يكونا موجودين حتى عند ليليث زوجة نُوَا ساعة نادته: ادخُلْ، وهي تداعب جسدها المنحوت ببراعة. تَذكَّر لهاثها وأنين شبقها الذي زرع في مخيّلته أخاديدَ لذةٍ عميقة لا تزيلها مداحل النسيان الثقيلة فصار يرتعش من الإثارة.

أنعظ قابيل. كادت تخيّلاته الماجنة تقوده إلى الطابق الثالث حيث تسكن الليدي تشاترلي في غرفة ملاصقة لغرفة مدام بوڤاري، لكنه فوجئ بوقع أقدام تقترب من الباب. أصاخ السمع فأدرك أنّ لتلك الخطوات إيقاع أنثوي خليع يضبطه المجون. استنفرت كلّ حواسه وبقيت نظراته مشدودة إلى الباب الموارب حتى انفتح بهدوء فدخلت الليدي تشاترلي بكامل أنوثتها كعاصفة من الشهوة.

لم يكن يغطّي جسدها المثير سوى غلالة حريرية بيضاء مشقوقة عند الصدر والساقين وبلا أكتاف. بدت تلك الغلالة فجرًا شفيفًا يغمر عراءً ثلجيًا تتناوب عليه

هضاب وتلال ومنعرجات تخلب النظر وتثير جمرة الرغبة.

وقبل أن ينهض قابيل لاستقبالها، ضمّت الليدي تشاترلي أصابع يدها اليمنى ما عدا السبابة التي وضعتها متعامدة على شفتيها الممتلئتين كحبّتَي فراولة وتقدّمت صوب السرير ثمّ اعتلت قابيل المنتعظ المستلقي على ظهره وبدأت تلهث بشبق.

في هذه اللحظة بالذات وصل صدى السانتوري إلى ردهة الطابق الثاني. كان زوربا قد بدأ يعزف أخيرًا.

بدأ الإيقاع بطيئًا: فاصلٌ صامت بين كلّ ضربتين متتابعتين بالمضربين الخشبيين الصغيرين على الأوتار. هصر قابيل خصر الليدي تشاترلي. ازدادت سرعة إيقاع السانتوري درجة واحدة. تأوّهت الليدي تشاترلي. أولجت لسانها في فم قابيل فمصَّه بعنف محدود بقياس تحدّده الشهوة. بادلته مصَّ اللسان بحنكة مثيرة ثمّ ضغطت بشفتيها الرطبتين على شفته السفلى كأنها تريد انتزاعها من الفم. تسارعت موسيقا سيرتاكي. بدت الليدي تشاترلي كأنها تريد التهام قابيل كله وليس شفته السفلى فقط. حرّكت ردفيها المكوّرين على فخذيه بمنتهى الخلاعة. ازداد عزف السانتوري صخبًا. قبضت بيديها على شعره، شدّته، رفعت رأسه إلى صدرها. ألقمته البنفسجتين بالتناوب. تعالى صوت العزف بإيقاع أسرع فاجتمع النزلاء في بهو الفندق. تشابكت أذرع وأكتاف الجميع: ذراعا راقصٍ على كتفي من بجانبيه من الراقصين وهكذا. كان الكلّ هناك: مدام بوڤاري، الماركيز دو ساد، راسكولنيكوف، آدسو وجيوڤاني دروغو. تناسقت حركات الأرجل تمامًا مع إيقاعات السانتوري. وكان زوربا منسجمًا وغارقًا كليًا في اللحن مغمض العينين. أثار قابيلَ صوتُ اللحن الجميل وإيقاعُه المتسارع إلى أقصى حدّ. دفع الليدي تشاترلي عن صدره. وقف عند حافة السرير، أمسك بخصرها وسحبها إلى حضنه. طابق بين رَهْزِهِ وبين عزف زوربا. سمع خبطَ أقدامٍ متوافقًا مع إيقاعات السانتوري الصاخبة. امتلأ الفندق باللحن العذب وامتلأت الغرفة بفحيح

الشهوة. وصلت الليدي تشاترلي إلى ذروة النشوة فصارت تشهق. أطلق قابيل صرخة وحشية من فرط النشوة. وفي هذه اللحظة سحبته الليدي تشاترلي من يده وركضت خارجة به من الغرفة عبر الباب المفتوح. هدأت الموسيقا الصاعدة من البهو قليلًا لكنها لم تتوقّف.

في الردهة الطويلة بدأت جولة جديدة. عزف الجسدان من جديد ألحان الشهوة. قبّلت الليدي تشاترلي فم قابيل كأنها تمتصّ روحه. عضّت عنقَه، حلمتَيْ أذنيه. ثمّ مشت به عبر الردهة، وما لبث قابيل أن نزع عنها غلالتها البيضاء. ظهر الجسد المنحوت بإتقان بكامل فتنته. ارتفع مرّة أخرى صوت العزف الجميل الصاخب. ازداد اللحن تسارعًا بينما نزل قابيل والليدي تشاترلي الدرجاتِ إلى الطابق الأول. ودرجة بعد درجة، صارت الليدي تشاترلي المستثارة إلى أبعد حدٍّ تتحسّس جسد قابيل المتوتّر، بقعة بقعة وتترك في كلّ مكان من الجسد الأسمر آثار أسنانها. لعقت لحمه الأسمر الصلب بجنون. وطبعت بشفتيها الرطبتين قبلة خليعة على الوصمةَ الموجودة في منتصف جبينه وردَّدت بصوتٍ كفحيح الأفعى:

- دعني أقبّل أثر سبّابة السيد الأعظم يا حبيبي. جبينك مقدّس أيّها الفحل.

صعد الجسدان المتداغمان في سُلَّم الشهوة وهما ينزلان الدرجاتِ القليلة الباقية حتى وصلا إلى الطابق الأوّل. هناك وعند باب غرفة زوربا استمرّت ثورة الجسدين. كانت الفوضى تهيمن على سرير زوربا. أغرتهما تلك الفوضى الوحشية. تدافعا على السرير الصغير واكتملت دورة الهياج هناك، ذاب الجسد في أتون الشهوة فعرج الاثنان معًا إلى سماوات الرعشة الكبرى.

في تلك اللحظة ذاتها أنهى زوربا عزفه وألقى مضربَيْ الخشب على أوتار السانتوري كيفما اتّفق، ثمّ نهض رافعًا ذراعيه كأنه يوشك أن يطير وسط تصفيق الراقصين وهتافاتهم.

- براڤو زوربا. كان عزفك رائعًا. لم ترقص أجسادنا فقط. بل رقصت أرواحنا أيضًا. شكرًا لك أيّها اليوناني العظيم.

قالت مدام بوڤاري وألقت رأسها على كتف الماركيز دو ساد فصار يمسِّد شعرها بحنان.

لم يردَّ زوربا. تنقّل ببصره بين المجتمعين حوله ثمّ سأل بتوتّر.

- أين كوني؟

ردَّ راسكولنيكوڤ:

- ربما كانت في الحانة.

قال الماركيز دو ساد:

- لا أعتقد. كنتُ وإيمّا هناك قبل قليل. كانت الحانة خالية.

وافقته مدام بوڤاري بإيماءة من رأسها، فقال آدسو:

- أخشى أن تتكرّر الجرائم. علينا أن نباشر البحث عنها حالًا.

ابتسم جيوڤاني. قال غامزًا للماركيز دو ساد:

- هل لاحظتم أيّها السادة أنّ قابيل أيضًا غائب؟ ابحثوا عن قابيل فستجدون الليدي تشاترلي.

لمع الشر في عينيْ زوربا. بدا متحفّزًا مثل ذئب جائع في عراء ثلجي اشتمّ رائحة فريسة حيّة في الجوار. غادر الأريكة بسرعة تاركًا السانتوري الذي أرهقته

إيقاعات سيرتاكي الصاخبة وصعد الدرجات مثل كنغر غاضب متوجهًا إلى غرفته تتناهبه الهواجس وتتناوشه الأفكار.

تقدّم آدسو من جيوڤاني وسأله:

- هل تعتقد يا سيد دروغو أنّ قابيل هو القاتل؟

سعل جيوڤاني. توقّف برهة ثمّ سعل ثانية وحين توقّف سعاله قال:

- وكيف لي أن أعرف؟ الكاتب العجوز اللعين هو الذي سيخبرنا هذا المساء إن كان قابيل قاتلًا أم لا.

- ومن أين سيعرف الكاتب العجوز من هو القاتل وهو غائب عنا؟

- كلّ خيوط اللعبة في يده أيّها الفتى اللجوج. ألم تسمعه يكرّر جملته الأثيرة هذه؟

ردَّ جيوڤاني بجفاء وبدأ يسعل هذه المرّة بلا توقّف.

كان آدسو يشك في قابيل منذ أوّل يوم اجتمعوا فيه في المكان الذي شهد مقتل غريغور سامسا ثمّ اختفاء جثته. هناك شهد الجميع سجالًا حادًا بين إدريس وقابيل. شكَّ إدريس وقتذاك في أمر قابيل وقال له «ربما تكون أنت القاتل» مدَّعيًا أنّ له خبرة في تهشيم الرؤوس وأنه أوّل القتلة.

في جزء من الثانية استعرض الفتى البنديكتي آدسو جرائم القتل التي حصلت وحاول أن يجد رابطًا بينها وبين قابيل. اكتشف أشياء كثيرة أو هكذا تخيّل. وسرعان ما ركض صوب الدرج الذي يفضي إلى الطابق الأوّل حيث سبقه زوربا قبل دقائق. أما الآخرون، فبدا أنهم لم يأبهوا كثيرًا بالموضوع. دخل راسكولنيكوڤ مع الماركيز دو ساد حوارًا خافتًا عن فلسفة الجريمة ودور الندم في كشف الجرائم بينما استمرّ

جيوڤاني يسعل في منديل أخرجه من جيبه وصار ينظر عقب كلّ نوبة سعال في المنديل حتى صاح أخيرًا:

- يا إلهي! إنه دم.

قطع الماركيز دو ساد حديثه مع راسكولنيكوڤ وسأل مستغربًا:

- دم؟

فأجابه جيوڤاني:

- تصوّر أنني أنزف دمًا في فندق مهجور بعيدًا عن جبهات الحرب؟ أعتقد أنّ ذلك المجنون دون كيخوته نقل إليّ مرضه الخبيث من طريق العدوى. رئتاي ملتهبتان. وليس بيننا طبيب. أيُّ عبث يحاصر الإنسان منذ خروجه من بطن أمه حتى وُلُوجه بطنَ التراب؟ لقد قضيت ثلاثين عامًا في حصن باستياني اللعين منتظرًا حصول معركة كبرى أُصاب فيها بجراح أفخر بها باقي عمري، وأروي لأحفادي بطولاتي في الجبهة، لكن لم يحدث شيءٌ من ذلك كله. وعندما لاحت الفرصة ورأيت طلائع جنود الإمدادات وهم يذهبون إلى ميادين القتال بحماسة كبيرة وقعت أسير مرض لعين، فأبعدني الضبّاطُ الأعلى رتبة من الجبهة على الفور. أبعدوني كأنني عار على الجيش من دون أي اعتبار لسنوات عمري التي أفنيتها في انتظار العدو ومراقبته. وهكذا يا صديقي أقلَّتْني عربة فاخرة عليها شعار عسكري بعيدًا من الحصن. أعتقد أنّ الجنود الذين رأوني على تلك الحالة المزرية لم يلاحظوا أنني أيضًا متّجه إلى الموت مثلهم. ما الفرق أيّها الماركيز بين أن تتّجه إلى الموت في ساحة معركة دامية صاخبة وسط قرقعة الأسلحة، وبين أن يقودوك إلى الموت مريضًا في نُزُل حقير وسط الصمت في بلد غريب لا يعرفك فيه أحد؟ إنّ اللعنة ستتكرّر حتى لو جئتَ إلى هذه الحياة عشرات المرّات. لا فكاك من الدائرة التي رسمتْها لك الأقدار يا سيد. ها هي خاتمتي تتكرّر الآن مرّة أخرى. سأموت. أعرف

تمامًا أنني سأموت في هذا المكان الغريب. لا بأس بذلك فقد خَبِرتُ الموت ولا أتهيّبه أبدًا. ولكن ما يؤلمني الآن هو أنني ذاهب من جديد إلى لقاء الموت تمامًا كما ذهبت إليه في المرّة الأولى حاملًا هذه الروح البائسة والعظام الناتئة والجسد المرهق المترهّل.

كان الماركيز دو ساد يستمع إلى جيوڤاني دروغو بتأثّر شديد محدِّقًا في عينيه الحزينتين ويتابع حديثه البطيء بنبرة يائسة. وعندما انتهى الضابط جيوڤاني من حديثه الطويل لاحظت مدام بوڤاري أنّ الدموع تلمع في عيني الماركيز دو ساد فقدّمت له منديلًا يجفّف به دموعه. وقبل أن يعقّب الماركيز أو مدام بوڤاري أو حتى راسكولنيكوف على حديث جيوڤاني الكئيب أتتْهُ نوبة سعال مرعبة جديدة لم تتوقّف إلّا بعد ثلاث دقائق.

لم يأبه الأشخاص الأربعة الموجودون في بهو الفندق بالذي كان يجري في الطابق الأوّل. سمعوا جلبة غير واضحة ووقعَ خطوات متوتّرة وأصواتًا غاضبة، لكنّ حالة جيوڤاني الصحّية التي صارت تتدهور بتسارع، وبقع الدم الكثيفة التي كانت تخرج من فمه مع كلّ نوبة سعال لتملأ منديله أقلقتهم، وجعلتهم يفضّلون متابعة وضعه على معرفة ما يجري في أعلى.

لكنّ صرخة الليدي تشاترلي الحادّة «لا تقتله يا زوربا. أرجوك لا تقتله!» كانت كافية لأن يعرف الجميع أنّ الوضع خطير وبحاجة إلى تدخّل سريع، وأنّ ثمّة معركة تجري أو ستجري بين زوربا وبين شخص آخر ربما يكون آدسو أو قابيل.

- ابقي هنا يا حبيبتي لرعاية صديقنا جيوڤاني وسأذهب أنا والفتى الروسي لنستطلع الأمر.

هذا ما قاله الماركيز دو ساد لمدام بوڤاري، ثمّ هبَّ واقفًا، فتبعه راسكولنيكوف

بينما تابع جيوڤاني خطواتهما العجلى بنظراته القلقة ووجهه المصفرّ الممتقع من دون أي تعليق.

وحين وصلا إلى الطابق الأوّل توجّها من فورهما إلى غرفة زوربا حيث يتعالى منها صراخ الليدي تشاترلي المتكرّر:

- أرجوك يا زوربا لا تقتله!

فوجئ الاثنان بقابيل يخفي وراءه الليدي تشاترلي العارية تمامًا والمرعوبة. بينما وقف زوربا مهتاجًا مثل ثور وفي يده عظمة حادّة يلوح بها في وجه قابيل، يسدّدها إليه، يشتمه ويهدّده بالقتل.

وكان آدسو يقف عند الباب مرتجفًا من الرعب لا يجرؤ لا على الدخول ولا حتى على مغادرة المشهد. شعر بأنّ الواجب يحتِّم عليه التدخّل لفضّ المشاجرة التي قد تتطوّر إلى جريمة قتل، أو يتحتّم عليه على الأقل مراقبة تفاصيل الحدث ليدوِّن شهادته حين يكتشف القاتل هذه المرّة يقينًا بالعيان وليس تخمينًا بالاشتباه وجمع الأدلّة. كان سيشهد أوّل جريمة قتل في حياته بعد أن عاش سنوات عدّة يتخيَّلها. في دير الجرائم كما هنا في هذا الفندق اللعين كانت جرائم غامضة تُرتكَب من دون أن يُعرَف من هو القاتل. وكان هذا الأمر يقضُّ مضجعه. فما دام القاتل طليقًا لا أحد يستطيع تخمين الضحية التالية. لقد قضى أستاذه الراهب الفرنسيسكاني ويليام وقتًا طويلًا من البحث والتحقيق الميداني حتى أنه قام بتشريح بعض الجثث ولم يكتشف القاتل إلَّا بعد مقتل عديد من رهبان الدير. أدرك آدسو خلال تلك الأيام الصعبة أنّ القتل فعل لا يمكن مراقبته والتحرّي عنه من دون أن يصاب الإنسان بنوع من الهستيريا. كما أدرك أنّ وصية «لا تقتل» التي كتبها السيد الأعظم على ألواح أحد مبعوثيه بخطّ يده لم تكن عبثًا. لكنه حدّث نفسه: «لا تقتل! هذه كلمة سهلة اللفظ يمكن أن يوجّهها أيٌّ يكن لأيٍّ يكن. لكن هل هذا هو الحلّ لمعضلة معقّدة مثل جريمة القتل؟

هل الموضوع شمعةٌ يشعلها المرء ويطفئها متى أراد؟ كيف بسّطَ الكتاب المقدّس القضية إلى هذه الدرجة عبر الوصايا العشر كأنه يخاطب الأطفال ويدرّبهم على حركات جِمنازية أو يوجّههم على المائدة إلى الآداب العامة في الأكل؟ هل يمكن معالجة الأمور على هذا النحو عبر صياغة مجموعة من الوصايا التي لم تمنع القتل ولا ارتكاب الآثام وشن الحروب على طول التاريخ؟ هل يكفي الإنسانَ الآثم، بسبب ما يحيط به من ظروف ضاغطة لا تحصى، أوامرُ مثل «لا تقتل، لا تزنِ، لا تسرق» من دون إزالة مسبّبات القتل والزنا والسرقة وسائر الخطايا الأخرى؟ ليس الإنسان، هذا الكائن العضلي العظمي الحيّ، من يؤدّي فعل القتل، إنما صفاته الموروثة أو المكتسبة. عضلات الإنسان تنفّذ أوامر الدماغ فحسب، إنها التربية التي لم تمنع القتل ولا ارتكاب الآثام وشن الحروب على طول التاريخ. لقد قرأت الوصايا العشر والشروحات المرفقة بها وسمعت تحذيرات القساوسة ومواعظ الرهبان مرّات كثيرة. لكنّ ذلك لم يمنعني من الوقوع في الخطيئة وارتكاب فعل الزنا مع الفتاة التي شاركتني أجمل لحظات العمر. أمر «لا تزنِ» الذي كنت أعرفه بلا شكّ وسمعته من القساوسة في عظات قدّاس الأحد لم ينفعني في مقاومة إغراء ذلك الجسد الأنثوي البديع الذي نحته السيد الأعظم وصاغه بأنامل قدرته الكلية على أكمل ما يكون. كذلك لم تنفعني وصية «لا تزنِ» في مقاومة تلك الرغبة الجارفة التي دفعتني إلى الوصول إلى الجسد الشهي. إصدار الأوامر والنهي عن بعض الأفعال أمر سهل بل ساذج بدون معالجة الأسباب التي تؤدّي إلى ارتكاب تلك الأفعال.

- لا تقتله يا زوربا! لا تقتله يا قابيل!

استفاق آدسو من خيالاته على هذا الرجاء المغلَّف بالخوف تطلقه الليدي تشاترلي في سعيها المستمرّ لتهدئة زوربا وقابيل بلا جدوى. كان يرى في جسدها العاري الجميل جسدَ صاحبته التي شاركته المتعة في المطبخ، فاهتزّ إيمانه وقتذاك وخاف عقاب السيد الأعظم خاصة بعد اعتقال الفتاة المسكينة لولا أنّ أستاذه ويليام

طمأنه.

وفجأة زأر زوربا. أخرج كلّ ما في جوفه من عنف القتلة وغضب الموتورين وطلّاب الثأر وبدأ يصرخ:

- سأنتقم للبشرية كلها منك أيّها الوغد!

ثمّ رمى العظمةَ الحادّة بكل قوته صوبَ قابيل الذي كان ما يزال يخفي الليدي تشاترلي العارية والمرعوبة وراء ظهره.

11

في غضون أقل من ربع ساعة تدهورت صحّة الضابط جيوڤاني دروغو بحدّة. صار يلهث بتسارع بين كلّ نوبتيْ سعال حتى خافت مدام بوڤاري أن يلفظ المسكين روحه بين يديها.

- أيّتها السيدة الجميلة رافقيني إلى الحانة أرجوك. يبدو أنّ القدر سيعيد دورته. الزمان دائري تمامًا مثل المكان.

لم تفهم مدام بوڤاري ماذا يعني أنّ القدر سيعيد دورته، ولم تفهم كذلك إشارته إلى دائرية الزمان والمكان. تجاهلت كلّ ذلك وردَّت عليه بلطف:

- لكنك بحاجة إلى راحة تامة يا سيد جيوڤاني!

- راحتي هناك. أريد كأسًا.

- يمكنك البقاء هنا وسآتيك بما ترغب.

- لا. أريد أن أنزل إلى الحانة. ساعديني فقط في المشي قبل أن أفقد قواي نهائيًا.

أمام إلحاح الضابط النحيل، الذي صار يتكلّم بتهدُّج واضح ولم يعد قادرًا حتى على السعال، نهضت مدام بوڤاري. رفعت ذراع جيوڤاني اليمنى إلى عنقها، طوقّت خصره النحيل بذراعها اليسرى ثمّ مشت به صوب الحانة ببطء وحذر. عانت في النزول عبر الدرجات الثلاث عشرة قليلًا لكنها تمكّنت في نهاية الأمر من الوصول

إلى الحانة، فأجلست جيوڤاني على أقرب كرسي وجلست بجانبه تواسيه.

بدَّدَت أضواء خفيفة منسربة عبر نافذة مستطيلة عند السقف عتمة الحانة، فظهرت الزجاجات المرصوفة على الرفوف الخشبية أرتالًا من الجنود ينتظرون دورهم في خوض المعركة أو يتهيؤون للانخراط في تدريبات عسكرية استعدادًا لحرب منتظرة. نظر جيوڤاني إلى تلك الزجاجات الصامتة وقال بصوت واهن:

- عشت ثلاثين عامًا مثل زجاجة على رفّ متداعٍ في حانة منسية. زجاجة فارغة لم يأبه بها الذين ارتادوا الحانة من العابرين كلّ ذلك الوقت. ثلاثون عامًا يا مدام بوڤاري. هذا يعني ببساطة شديدة العمر كله. أو لأكن دقيقًا أكثر: أفضل ما في العمر من سنوات.

لم تفهم السيدة الفرنسية مرّة أخرى ما يرمي إليه الضابط الإيطالي، ومع ذلك رأت أنّ عليها أن تسرّي عنه وتبدِّد كآبته فسألته:

- بماذا ترغب؟ لقد طلبتَ كأسًا حين كنّا في البهو.

- أرغب في كأس من الروم. أريد شرابًا ثقيلًا يخفِّف عني عناء الرحيل عن هذه الدنيا. أشعر يا سيدتي أن ساعتي قد دنت.

- أوه لا. لا يا سيد دروغو. ستصبح أفضل حالًا. سآتيك بالروم فلا تقلق.

- هاتي الزجاجة كلها.

- كما تشاء.

قالتها مدام بوڤاري ونهضت بخفّة. كانت حزينة على هذا الضابط الذي يموت وحيدًا منسيًا لا يريد شيئًا سوى الموت بأقلّ قدر من العناء.

- كلّ شيء في هذه الحياة انتظار يا عزيزتي إيمّا. حتى شرْب كأسٍ من الروم.

ها أنا ذا أنتظر أن أرشف ما في هذه الكأس لكي أبدّد خوفي من ساعتي الأخيرة. إنها الحقيقة. الحياة انتظار. العمر كله ليس سوى سلسلة من الانتظارات العبثية. يولد الإنسان لينتظر. وحدهم الموتى لا ينتظرون شيئًا.

قال جيوڤاني بعد أن عادت مدام بوڤاري ووضعت أمامه كأسًا كبيرة مملوءة إلى ما فوق منتصفها بالشراب الذهبي، ثمّ أشعلت شمعة قديمة ثخينة فامتلأت الكأس بالضوء الباهر.

قالت مدام بوڤاري بنبرة شفقة:

- أرجو يا سيد دروغو أن تتغلّب على آلامك. أشعر أنك تتألّم كثيرًا وهذا يؤلمني. لكنّ بعض الأمل قد يعيد حيويتك. عشبة الأمل لا تيْبَس.

- إن كانت عشبة الأمل لا تيْبَس حقًا فلأنها لا تثمر. الأمل شجرة عاقر يا عزيزتي.

قال جيوڤاني وهو يتنفّس بصعوبة وينتزع طيف ابتسامة يضعها على شفتيه اللتين تبلَّلتا بالشراب الذهبي الثقيل.

ساد قليلٌ من الصمت، راقبت خلاله مدام بوڤاري أنفاس جيوڤاني فلاحظت أنها تتباطأ وتُمسي أثقل بمرور الوقت. ساورها الخوف وأرادت للحظة أن تغادر الحانة لكنها قالت في نفسها: لا ينبغي أن أترك رجلًا يموت وحيدًا.

ابتسم جيوڤاني ابتسامة رضا فاجأت مدام بوڤاري. بدا كأنه سمع أفكارها فقال:

- مؤلم يا عزيزتي أن نعيش بصخب ونموت وحيدين.

وحمل الكأس، بصعوبة، بيدٍ مرتجفة إلى شفتيه اليابستين، تجرَّع كلّ ما في الكأس الذهبية دفعةً واحدة ثمّ قال والكأس ما تزال في يده:

- ولكن يا عزيزتي إنه نوع من العزاء أن نرحل من دون أن نترك وراءنا شخصًا يمتلئ قلبه حزنًا على الفراق الأبدي.

لم تَرُدَّ مدام بوڤاري. كانت صامتة لفرط تأثّرها بالحديث الشجي للضابط المحتضر الذي فاجأها بعد قليل من الصمت بسؤال غريب بدون مقدّمات:

- هل تعرفين ماريا ڤيسكوڤي؟

- ماريا؟ لا. من هي؟

أجابت مدام بوڤاري، ملأت كأسه من جديد وصارت تراقب وجهه الذاوي:

- هي شقيقة صديقي فرانشيسكو البدين. لقد أحببتها كثيرًا. ما أزال أحبّها يا سيدتي. وهذا ليس عجيبًا، فالحبّ نوع مؤلم من الانتظار ويبقى شوكه يَخِزُ الإنسان حتى آخر لحظة.

وألمّت به نوبة سعال مرعبة امتدّت لأكثر من دقيقة. وحين هدأ، رفع الكأس إلى فمه فتجرّع ما فيها، ثمّ مسح فمه بمنديله الـمُدَمَّى وقال بفرحٍ طفولي:

- كنت أتمنّى أن أموت في حضنها. والآن أنا محظوظ هنا ولو أنني بعيد عن ذلك الحضن وعن مسقط رأسي أيضًا. بعيد حتى عن الحصن اللعين الذي أفنيت فيه أفضل سنوات العمر. ومع ذلك فإنني محظوظ الآن حين أجود بنفسي بين يدَيْ امرأة رائعة مثلك. إنها نهاية أسعد بكثير من نهايتي السابقة وأي نهاية أخرى يمكن لي أن أتخيّلها.

في هذه اللحظة بدأت مدام بوڤاري تبكي. لمعت دموعها اللؤلؤية في ضوء الشمعة وسمع جيوڤاني نشيجها الخافت فقال بصوت مفعم بالتأثّر والانفعال:

- إنهم قادمون! التتار قادمون! إنهم قادمون عبر الطريق الشمالية! الكل صعد

إلى السطح لرؤيتهم من هناك يا جيوڤاني. الجنود سيخوضون المعركة التي انتظرناها طويلًا. وحدك يا جيوڤاني ستموت مثل كلب أجرب!

كان واضحًا أنّ جيوڤاني بدأ يهذي. تعالى نشيج مدام بوڤاري فنظر إليها جيوڤاني بإشفاق ورأى في الضوء الشحيح للشمعة القديمة المشتعلة دمعتين كبيرتين تنحدران على وجنتيها المورّدتين فاكتفى بأن ابتسم لها ثمّ أغمض عينيه في حبور.

لم تستغرق العظْمة التي رماها زوربا صوب قابيل سوى أقلّ من ثانية لتنغرز في صدر الليدي تشاترلي. اتّسعت حدقتا زوربا على آخرهما. لم يصدّق عينيه. كيف حصل ذلك؟ كذلك تجمّد الفتى البنديكتي آدسو من الذهول حين شاهد العظْمة تنغرز في لمح البصر مثل خنجر في الجهة اليمنى من الصدر الجميل الذي كان يذكّره طوال الأيام الماضية بنعيم اللقاء الحميمي مع فتاة المطبخ، ذلك اللقاء الذي ظلّت رائحته تعبق وتعطّر عمره كله. لم يلاحظ آدسو بالرغم من متابعته لأدقّ تفاصيل الحدث كيف انزاح قابيل ولماذا؟ هل نسي أنّ الليدي تشاترلي وراءه؟ أم فعل ذلك بكامل وعيه مدفوعًا بغريزة البقاء؟

ثمّ من أين جاء زوربا بتلك العظْمة؟ إنها فكُّ حيوان كبير. قال آدسو لنفسه وهو ما يزال يراقب بذهول تامٍّ الدمَ الذي بدأ جرح الليدي تشاترلي ينزفه بغزارة.

- لقد قتلها المجنون!

أخيرًا نطق قابيل ليعيد ترتيب المشهد التراجيدي بما يناسبه من كلمات.

جثا زوربا مذهولًا على ركبتيه وصار يحدّق في الليدي تشاترلي. كانت نظراتها مليئة بالعتاب. حاول أن يقول شيئًا، يعتذر، يوضح ما فعله، لكنه شعر بلسانه قطعة فحم في فمه. أخرسته صدمة المفاجأة.

أسرع الماركيز دو ساد صوب الليدي تشاترلي، وحين صار يجسُّ نبضها عند

الرسغ وفي العنق صرخ:

- لقد فقدت وعيها لكنها تعيش.

ثمّ نزع العظْمة التي لم تكن قد نفذت عميقًا.

- لو أبقيْتَ العظْمة لكان أفضل.

قال قابيل وانحنى يحمل العظْمة. دُهش مما رآه فسأل زوربا مستنكرًا:

- فكُّ حمارٍ يا زوربا؟

لم يَردَّ زوربا. كان مستمرًا في التحديق بذهول فيما حوله. بدا أنه أصيب بلوثة عقلية مفاجئة، نوع من الخرس المفاجئ أو فقدان عقل خاطف. هرع راسكولنيكوف إلى الملاءة التي كانت على سرير زوربا، مزّقها بأسنانه إلى قطع عدّة وأسرع يضغط بتلك القطع على الجرح محاولًا إيقاف نزيفه.

تعاون آدسو والماركيز دو ساد وقابيل على حمل الليدي تشاترلي ووضعوها على السرير بينما انهمك راسكولنيكوف في صنع ضمّاد محكَم لإيقاف النزيف.

بقيت الليدي تشاترلي الجريحة العارية غائبة عن الوعي، بينما ظلّ زوربا يعاني صدمةً هائلةً أخرسته وشلَّتْ حركته. اعتقد زوربا لأوّل وهلة أنه قتل الليدي تشاترلي، لكنه حين رأى المحيطين بها يهتمّون بالجرح ويهمهمون بنبرات خالية من الحزن والفزع أيقن أنّ بها رمقًا من الحياة فارتسمت على شفتيه ابتسامة مرعبة. كان الشلل قد ضرب عضلات النصف الأيمن من وجهه فلم يعد يسيطر عليها.

عندما بدا أنّ الليدي تشاترلي ستتجاوز الخطر، قال قابيل وهو يلوِّح بالعظْمة:

- لقد نجت. وهذا أمر جيد. وبفضل محاولة القتل هذه عرفنا المجرم. أعتقد أننا وصلنا إلى نهاية النفق. القاتل هو زوربا.

- وما هو دليلك؟

قال آدسو، فردَّ قابيل:

- فكُّ الحمار. هذه آلة قتل استخدمتُها أنا في قتل أخي.

- لكنّ الجرائم السابقة لم تُرتكب بطعنات من فَكِّ حمار. كلّ حادثة استُعمِل فيها أسلوب مغاير ومختلف عن سابقه. تتذكّر بلا شكّ مقتل يوهان موريتز خنقًا في غرفته! الآلة كانت وسادة ولم تكن فَكّ حمار. ثمّ جاء مقتل سانتياغو بطعنة من رمح السمكة. بالإضافة إلى أنّ زوربا ليس من أصحاب السوابق.

- ما معنى أصحاب السوابق؟

- يعني أنه لم يرتكب سابقًا أي جريمة.

- وهل كنت أنا صاحب سوابق؟ هل كان راسكولنيكوف كذلك؟ ما من أحد يولد مجرمًا يا سيادة المحقّق.

- كنت أقصد أنّ المجرم يتعوّد القتل. وربما يدفعه السعي إلى إخفاء جريمته لارتكاب جريمة أخرى وهكذا. قد يعمد لصٌّ عادي إلى قتل من رآه يسرق ليخفي جرم السرقة أو العكس، وذلك من دون أن يكون قد بيَّت نيَّةً للقتل. أي إنّ القتل ليس عن سابق إصرار وترصّد بلغة التحقيقات الجنائية. الجريمة تستولد الجريمة. أليس كذلك يا راسكولنيكوف؟

- أنت تتكلّم بلسان التحقيق المنطقي يا آدسو. وهذا لا يفيد هنا للأسف. نحن خرجنا من دائرة المنطق. حتى المنطق الروائي لم يعد متوافرًا هنا. لا منطق في فخاخ أُلْهيَّة هذا الرجل العجوز التي وقعنا فيها جميعًا. إننا الآن أسرى الخروج عن النص.

أجاب راسكولنيكوف وهو ينظر بسرور إلى الضمّاد المحكَم الذي أوقف به النزيف.

عَقَّبَ قابيل:

- ويجب ألَّا يغيب عن بالك أنه يمكن لأيِّ قاتل استخدام سلاح مختلف في كلّ جريمة جديدة. لا يتزوّج القتلة أسلحتَهم أيّها الراهب الشاب.

ضحك الماركيز دو ساد من سخرية قابيل ثمّ قال:

- لو كانت هناك ذرَّة منطق في هذه اللعبة لكنتُ أكثركم وحشية. لكنني، كما ترونني، عاشق ولهان لا أصبر على فراق إيمّا ولو ساعة من الزمن. رومانسي رقيق أركض كالمراهقين وراء حبيبتي إيمّا الفاتنة منذ أن التقينا أوّل مرّة أنتظر إشارة واحدة منها للقبول بي زوجًا. أيّ مهرّج أنا في لعبة هذا المهرّج!

سرت عدوى الضحك إلى قابيل أيضًا. نظر إلى الليدي تشاترلي الممدّدة على سرير زوربا. أسعده أنها لم تمت. فكّر في مغزى هذه الحادثة العجيبة. استعاد التفاصيل وبدأ يرتِّب في رأسه كلّ ما جرى بتسلسل زمني: «كان زوربا يعزف لحنًا بإيقاع عذب بهيج. كان الجميع سعداء. صاروا يرقصون وسمعنا خبط أقدامهم. كنت أنا وهذه الفاتنة كوني التي ترقد الآن بين الحياة والموت سعيدين أيضًا نخوض بحيرة العسل غارقين فيها حتى أنوفنا. المشهد كان جميلًا صافيًا مثل وجه بحيرة ساكنة عند الغروب تعكس منظرًا بديعًا من الأشجار الخريفية الزاهية الألوان، وغيوم تلوّنها حمرة الشفق. لوحة بديعة. وكنت أترقَّى في معارج اللّذة درجة درجة بصحبة أشهى امرأة. امرأة تستطيع أن تحرّك حتى شهوة الحَجَر وتغوي حتى الشَجَر. فما الذي دفع هذا المجنون الذي يقف الآن ينظر ببلاهة في الفراغ إلى أن يقتحم خلوتنا ويقطع لذتنا؟ لا معنى لما جرى سوى أنه هيمنة اللامنطق. اللامنطق الذي يحكم العالم مذ طرد السيد الأعظم أبي وأمي من عدن لجرم بسيط ورماهما إلى هذه الأرض لنكابد

رَهَق الحياة جيلًا بعد جيل. اللامنطق يسود أُلْهِيّةَ هذا الكاتب العجوز أيضًا. ألم يكن بالإمكان صنع حياة أفضل بكثير من هذا السيرك المجنون وهذه الملهاة العبثية الغامضة التي أُقحمنا فيها لنؤدّي أدوارًا معينة نعاقَب على أدائها في نهاية المطاف؟ ألم يكن بالإمكان أن يرتّب هذا العجوز اللعين فصول روايته بأسلوب أكثر بهجة من دون أن يلوّثها بالدم؟».

في هذه الأثناء، انتبه آدسو البنديكتي إلى أنهم أهملوا المسكين زوربا لانشغالهم بجرح الليدي تشاترلي. كانت السخرية قد أثقلت عليه فأراد أن يصرف النظر عن كلّ ما قالوه. استجمع كامل شجاعته وقال بثقة:

- هل نترك زوربا هكذا؟ واضحٌ أنه فقد عقله، أو أنه أصيب بشلل نصفي أذهله عن كلّ شيء. هل تلاحظون ملامح وجهه؟ فمه نصفه المفتوح ولعابه الذي يسيل؟ هل ترون عينه اليمنى التي لا يستطيع فتحها؟

نظر الجميع في وجه زوربا الذي تغيَّرت ملامحه، حتى بدا أنّ كلّ عضلة من عضلاته اختارت وجهة خاصة بها وصارت تنزلق بعيدة عن أختها هائمة لا تعرف أين تستقر، مثل لحن تتنافر جمله الموسيقية. لحن لا انسجام فيه. لقد خلا وجهه من أي انسجام عضَلي، وأصبح مرعبًا بتلك التفاصيل المشوَّهة، نظراته تائهة وبلا روح، ويبدو بكلّ كيانه الهزيل يائسًا مستسلمًا لقدره.

وبينما كان الجميع غارقين في تلك الأفكار يتأسّفون على ما آلت إليه حال زوربا، علا صوت مدام بوڤاري فجأة وهي تركض في الردهة:

- جيوڤاني مات.

12

لم يكن هناك شكّ في أنّ جيوڤاني مات مرّة أخرى وحيدًا في حانة من دون أن يتسنّى له شرف خوض معركة مع أعداء انتظرهم طويلًا.

ـ هل ندفنه؟

سأل قابيل وهو ينظر إلى جيوڤاني الميت فأجاب آدسو:

ـ طبعًا. وماذا نفعل بجثته!؟ يبدو أنك ستحتار في كلّ مرّة يا قابيل.

ـ سألتُ هذا السؤال حتى أستبق ما قد تقترحه من أنّ الجثة بحاجة إلى تشريح وما إلى ذلك. لقد عرفناك محقّقًا لجوجًا من دون أن تهتدي إلى القتلة.

ردّ قابيل السخرية بسخرية مثلها، فأجاب آدسو:

ـ بالتأكيد لا حاجة إلى تشريح الجثة. يبدو الموت طبيعيًا جدًا في حالته. أعراض مرضه تشبه أعراض مرض ذات الرئة. وهو المرض نفسه الذي أصيب به دون كيخوته وقضى على أثره.

قال راسكولنيكوڤ مرعوبًا:

ـ هذه لعنة أخرى تضاف إلى لعنات هذا الفندق. ذات الرئة مرضٌ مُعدٍ. هذه هي الحالة الثانية. ماذا نفعل الآن؟

ـ لذلك قلت إنّ علينا أن ندفن الجثة بدون تشريح. وعلينا أن نحتاط للأمر.

لنجعل بيننا وبينها مسافة أمان حتى ندرأ عن أنفسنا العدوى المميتة. سنضع الجثة أولًا في جراب أو كيس نُحكم إغلاقه ثمّ نواريها التراب.

خرج قابيل والماركيز دو ساد من دون أن يضيِّعا ثانية واحدة، وانهمكا في حفر قبر إلى جانب قبر دون كيخوته. ولم يطل بهما الأمر حتى انتهيا من عملهما، فقد كانت الأرض ما تزال رخوة طرية كقطعة جبنة تمامًا كما كانت عندما حفروا أمس قبر دون كيخوته دي لا مانشا.

في هذه الأثناء، انتهى راسكولنيكوف وآدسو من وضع الجثة في كيس وأحكما إغلاقه وانتظرا عودة الماركيز دو ساد وقابيل.

سادت برهةُ صمتٍ يسَّرت لراسكولنيكوف وآدسو العودة إلى ما مرَّا به من أحداث في حياتهما الماضية. حدَّق الاثنان في الجثة الـمُسَجَّاة أمامهما، فاشتعل خيال كلّ واحد منهما حتى أضاء أشدَّ زوايا الذاكرة عتمة.

نظر راسكولنيكوف إلى الجثة فتذكّر المرابية العجوز إليونا إيڤانوڤنا وهي غارقة في دمائها بعد ضربة الفأس التي هشّمت رأسها. تذكّر العذاب الذي عاناه بعد قتلها ثمّ قتل أختها والمحنة التي وقع فيها. تذكّر الندم الذي نهب لياليه وسلبه الراحة. تذكّر وخز الضمير الذي رافقه فترة طويلة وجعله نصف مجنون يهذي ويتكلّم مع نفسه. تذكّر الحمى التي صارت تنتابه كلما تذكّر أنه أزهق روح إنسان. تذكّر سونيا الرائعة، المنفى السيبيري، القاضي الماكر پروفيري پيتروڤيتش.

مدَّ يده إلى عنقه حيث تتدلّى سلسلة منتهية بصليب أهدته إيّاه سونيا قبل أن يذهب لتسليم نفسه. فكّر في مفهوم الخلاص! هل يمكن أن يأتي الخلاص عبر العقائد وهي التي تسبّبت في مأساة ملايين البشر على مدى آلاف السنين! هل يمكن أن يكون الخلاص فرديًا ينبع من الذات أم أنّه يأتي من خارج دائرة الذات؟ كان راسكولنيكوف قد جاوز مثل هذه الأمور واهتدى لطريقه الخاص في الحياة بحيث أصبح شعاره

الدائم: لا بُدّ من العنف لتحقيق العدالة ولا بُدّ من العدالة لنبذ العنف.

في هذه اللحظة شعر بأنه لم يعد بحاجة إلى الصليب فانتزعه من القلادة وقدّمه إلى آدسو:

- تفضّل.

- ما هذا؟

- صليب.

- وماذا سأفعل به؟

- أعرف أنّ إيمانك اهتزَّ بمجرد معاشرتك فتاة غريبة. ربما تستعيد بعضًا من إيمانك.

- لست بحاجة إلى سخريتك يا راسكولنيكوف. نحن في حضرة جثة. وعندي صليبي.

- أنا لا أسخر منك يا عزيزي. أنا جادٌّ فيما قلته. احتفظ بصليبك. لكن هذا هو صليب سونيا. هل تعرف أنّ إيماني الذي فقدته عاد لي بفضل ذلك؟

- بفضل الصليب؟

- لا. بفضل سونيا. قد يعود إليك الإيمان المفقود على يد عاهرة أكثر مما يأتيك على يد راهب أو قسيس.

لم يردَّ آدسو. بدا من لمعة عينيه أنّ الجملة الأخيرة لم تعجبه، أراد أن يعترض لكنه آثر السكوت. عاد ليحدِّق في الجثة مفكّرًا في الأحداث التي وقعت منذ حضوره إلى هذا المكان. استعرض الجرائم الغامضة التي ارتُكبت خلال وقت قصير من دون أن يكتشف أحدٌ القاتل. قارن بينها وبين تلك التي وقعت في دير الجرائم شمال إيطاليا.

تخيّل أن يكون هو الضحية التالية. قال لنفسه: هذا حسن. على الأقل سأعرف القاتل. ابتسم. ثمّ تخيَّل أن يكون القاتل راسكولنيكوف نفسه، أو الماركيز دو ساد، أو قابيل، أو حتى الليدي تشاترلي اللعوب.

- الجريمة كالفطر لا تبقى تحت الأرض طويلًا.

قال ذلك في نفسه. وقد أعجبته جملته. كرَّرها بصوت خافت وانتعشت آماله باكتشاف القاتل ولو في آخر يوم من حياته.

- اليوم سنبدأ المناوبات. لا بُدّ من أن يقع القاتل في الفخ.

قال لنفسه ونظر مرّة أخرى إلى جثة الضابط الإيطالي جيوڤاني دروغو الممدّدة أمامه في راحة أبدية.

حين انتهى الماركيز دو ساد وقابيل من حفر قبر الضابط جيوڤاني جلسا قليلًا يتحادثان.

قال قابيل بحزن:

- كلّ القبور تذكِّرني بهابيل.

- هل أنت نادم؟

- لا معنى للندم بعد إزهاق روح بريئة. ولا معنى للعقاب أيضًا.

- هل تحقد على زوربا؟

- لا. هو يحقد عليَّ ومعه حق. لقد خطفتُ حبيبته. كان يهواها. لكنه لم يعرف أن كوني ليست امرأة حبّ. إنها زوبعة إغواء وشهوة. أراد زوربا أن يعيش حالة حبّ لم يعرفها في حياته السابقة. عاش أبيقوريًا لا يعرف من الدنيا إلَّا لذَّاته الحسية. وهنا اكتشف أنّ الحبّ السامي قد يعوّضه عن كلّ لذَّات الحياة لكنه طرق الباب الخطأ.

- صحيح. الليدي تشاترلي تريد أن تنتقم لنفسها من عجز زوجها المسكين. والآن ها هو زوربا. عاجز عن كلّ شيء.

- زوربا ليس مسكينًا أيّها الماركيز، وكذلك زوج تشاترلي. زوربا ضحية سذاجته. بينه وبين دون كيخوته وشائج مشتركة. كلاهما...

في هذه اللحظة سُمعت طقطقة قوية في أعلى قطعت حديث قابيل في المنتصف. رفع الماركيز دو ساد رأسه وهو يمسك بقبعته، فرأى درفتي نافذة مدام بوڤاري في الطابق الأوّل تصطفقان. خفق قلبه بقوة. لم تمضِ ثلاث ثوانٍ حتى أطلَّت من النافذة المفتوحة مدام بوڤاري بوجهها الذي أشرقت في سمائه ابتسامة عذبة. نظرت إلى أسفل ولوَّحت للماركيز دو ساد بوردة حمراء كبيرة لم تلبث أن رمتها عليه.

- لقد وافقَتْ.

صرخ الماركيز دو ساد وهو يلتقط الوردة الهابطة من سماء النافذة ثمّ ركض إلى داخل الفندق فتبعه قابيل وهو لا يفهم ماذا يجري.

بعد أن شهدت مدام بوڤاري وفاة الضابط جيوڤاني وركضت إلى أعلى لتنقل الخبر، فوجئت بما جرى في غرفة زوربا. وبعد أن فسَّر لها حبيبها الماركيز دو ساد ملخَّص القصة جلست إلى جانب الليدي تشاترلي التي استعادت وعيها بعد حوالى ثلاثين دقيقة فسألت على الفور عن قابيل.

كان زوربا يجلس على كرسي في الزاوية ويحملق في الفراغ بفم مفتوح يسيل منه اللعاب ووجْهٍ فقد ملامحه الحقيقية.

- ما الذي جرى لك يا كوني؟ هل صحيح ما سمعتُهُ من الماركيز؟

سألت مدام بوڤاري فردَّت الليدي تشاترلي بصوت واهن:

- هذا المعتوه أراد أن يقتلني لفرط غيرته.

وأشارت إلى زوربا.

همهم زوربا بغضب. ظهر أنه يعي ما حوله، ويعي أيضًا ما يُحكى بالرغم مما هو عليه من وضع مثير للشفقة. رأفت الليدي تشاترلي بحاله فصحَّحت عبارتها:

- أقصد أراد أن يقتل قابيل. ولكنه أصابني بالخطأ. تصوّري يا إيمّا لو كان زوجي البارون كليفورد مثله؟

- كان سيقتل عشيقك السيد ميلور بلا شك.

- أووه يا حبيبتي إيمّا. ذكّرتني بأمتع رجل عرفته في حياتي.

- وقابيل؟

- هذا ليس رجلًا. إنه قنطور خرافي يا إيمّا. يستحق أن أضحّي في سبيله بألف أوليڤر.

ظهرت علامات الإرهاق على وجه الليدي تشاترلي بالرغم من أنها ابتسمت وهي تتخيّل قابيل في هيئة قنطور كما تصوّره أساطير الإغريق. استعادت بمخيّلتها نصفه الأسفل وقالت لنفسها: إن لم يكن حصانًا فهو قريب منه. حاولت أن تجلس لكنها لم تستطع فطلبت منها مدام بوڤاري أن تركن إلى الراحة والهدوء:

- الأفضل أن تنامي الآن يا كوني. فجرحك حديث والدم ما يزال يَنِزُّ منه. ارتاحي وسأذهب إلى النافذة لأرى حبيبي الماركيز دو ساد. إنه ينتظر إشارة موافقتي على الزواج. لقد عذَّبْته بالانتظار.

- الزواج! يا لك من ساذجة. تكرِّرين أخطاءَك هنا أيضًا؟

- بزواجي منه لن أكرّر أخطائي السابقة. بل على العكس من ذلك، فإنني سأصحّحها. لن أستدين المال من أحد، لن أحتاج إلى تاجر جشع مثل الخبيث ليريه، ولن أحتاج إلى رجل آخر مثل ليون يشبع نزواته مستغلًا حاجتي ليدمّرني في النهاية. وبطبيعة الحال لن أحتاج إلى جرعة سمٍّ قاتل لكي أنتحر. سأستعيد ابنتي المسكينة بيرت لتتربى في حضني. الحياة حلوة يا كوني.

لم تردَّ الليدي تشاترلي. كانت قد غرقت في النوم بسرعة كبيرة لشدّة الإعياء الذي داهمها بسبب نزف الدم. أما زوربا، فكان منظره يدعو للرثاء. كانت في نظراته خيبة أبدية وهو يتابع حديث المرأتين الشبقتين وعلى شفتيه طيف كلمات لا يقدر على التلفّظ بها.

13

بالرغم من أنّ الزمن أصيب في رواية «الأُلْهِيَّة» بتشظٍّ واضح، وطالت مفاصلَه المتعدّدة ميوعةٌ فاجرة حتى أصبح شبيهًا بشمع ذائب، إلَّا أنّ بعض مظاهره بقيت صامدة عصِيَّة على التشظِّي والسيلان.

وهكذا فقد ظلّت الشمس، في الرواية، على حالها. تشرق ثمّ تغرب كالعادة، وكانت جزيئات الزمن تتدفّق متلاحقة بموازين كونية ثابتة بسبب الحركة التي نتجت عن وجود شخصيات مليئة بالحيوية ملأت المكان وصارت تتنقّل هنا وهناك.

الزمن انتقال من مكان إلى مكان. أي أنّ الحركة هي التي تنتج الزمن وتمنحه معنًى. ومن المحتّم أنه إذا انتفت الحركة نهائيًا فإنّ الزمن سيتلاشى ولن يكون هناك أي معنى للمكان أيضًا. في كوننا العظيم هذا مستحيل، لكن ربما كان هناك كونٌ آخر موازٍ لكوننا هذا لا زمن فيه، لا حركة ولا مكان. كونٌ بلا مادة بالخصائص التي نعرفها عن المادة.

دوَّن الكاتب العجوز هذه الجملة مضيفًا إيّاها إلى عشرات من الجمل الأخرى في دفتر ملاحظات صغير يحمله دائمًا في جيبه ليصطاد به الأفكار التي تداهمه بغتة ليبثّها لاحقًا في روايته عند الضرورة. وراح يفكّر في فصول روايته التي سوف تختلط فيها الأزمنة والشخصيات والأفكار والأمكنة. وهكذا، وبعد أن جمع أفكارًا كثيرة، وبعد أن اشتغل على مفهوم تشظّي الزمن وتهشيمه، المتناسب مع ما رسمه لشخصياته سلفًا من مصائر وأقدار، كتب روايته الأخيرة التي سمّاها «الأُلْهِيَّة». وتلك

هي الرواية التي كان قد فكّر في كتابتها ودوَّن مخطّطاتها الأوّلية ـ كما هو معلوم الآن ـ قبل أن يحترق المبنى حيث كان يقيم في مكتبته الصغيرة المنسية في قبو مبنى كبير من ثلاث طبقات. لقد كتب العجوز هذه الرواية خارج أسوار الزمن وبعيدًا جدًا من أي مكان مادي. ولهذه الأسباب، فإن الرواية، قاومت الحريق المدمِّر الذي أتى على المبنى الكبير بطبقاته الثلاث وعلى كلّ ما فيه.

قبل أن تغرب الشمس في اليوم الأخير من الرواية، انتهى دفن جيوڤاني دروغو وسط صلوات خافتة أدّاها الراهب الشاب آدسو الذي صنع من خشبتين عامَدَهما صليبًا صغيرًا ثبّته عند رأس جيوڤاني.

بعد ذلك نهض الجميع وقفلوا راجعين إلى بهو الفندق وهم يتباحثون أمر خطَّتهم الجديدة في المناوبة ومراقبة مداخل ومخارج الفندق ترقُّبًا لمجيء المجرم المفترض.

قال آدسو بعد أن حمل رمح سمكة المرلين ووضعه على خصره ثمّ شدَّ الزنار عليه:

ـ أنا سأراقب الحانة.

ـ وأنا سأرابط عند بوّابة الفندق.

عقَّبَ راسكولنيكوڤ رافعًا فأسه:

ـ وأنت أيّها الماركيز؟

ـ أنا سأكون في الطابق الأوّل لأحرس السيدتين بوڤاري وتشاترلي والسيد اليوناني زوربا المسكين. بقي قابيل. أين سترابط؟

- أنا سأبقى في بهو الفندق قريبًا منكم جميعًا. أنا قوّة إسناد يمكن لكم الاعتماد عليها أيّها الأصدقاء.

ردَّ قابيل، فضحك الجميع ودخلوا الفندق، إلَّا راسكولنيكوف فقد أعلن أنّ حراسته بدأت منذ تلك اللحظة، ولن يدع حتى الهواء يمرُّ إلى الداخل، ثمّ تموضع عند البوّابة الزجاجية الكبيرة وبيده تلك الفأس الحادّة وقد راحت أشعة الغسق تنعكس عليها.

توجّه آدسو على الفور إلى الحانة التي شهدت موت جيوڤاني قبل حوالى ثلاث ساعات. أوقد شمعتين ووضعهما على طاولة قريبة من البار وأخذ يتأمّل العتمة التي خفّفت الشمعتين من غلوائها، ثمّ جلس يتخيّل القاتل... ويتهيّأ لاحتمال اللقاء به، كم تمنّى أن يكون هو لا غيره أوّل من يكتشف القاتل المجهول ليقتله فيصبح لوجوده معنى في هذه الأُلْهِيَّة بعد أن فشل في اكتشاف لغز الجرائم التي وقعت طوال زمن الرواية القصير، وقد ناله اليأس وشعر بنفسه مجللًا بالعار إذْ إنّ علومه التي ورثها من معلّمه الفرنسيسكاني الحصيف ويليام الباسكارڤيلي لم تنفعه بشيء.

أما قابيل، فقد صعد إلى الطابق الأوّل على عجل كأنه في مهمّة. ألقى نظرة على الليدي تشاترلي النائمة في سرير زوربا فأدركته رقّةُ قلب لم يعهدها في نفسه من قبل. انحنى عليها وطبع قبلة خاطفة على شفتيها اللتين فقدتا اللون القرمزي الشهي بسبب ما نزفه جرحها من دماء. كانت قبلة فيها من العطف والشفقة أكثر مما فيها من الشهوة. بعد ذلك التفت إلى زوربا فالتقت نظراته بنظراته التائهة. أشفق عليه، شعر بالندم وقال في نفسه: سأرعاه بنفسي بعد أن ننتهي من أمر القاتل. تقدّم إليه وأمسك بيده مواسيًا بحنان أبوي. نظر إليه زوربا بنظرات فارغة من أيّ معنى ووجهٍ بلا ملامح مفهومة. عاد قابيل سريعًا إلى البهو فارتمى على الأريكة الفخمة التي تعوّد الجلوس عليها، وصار يلعب بفكِّ الحمار الذي لم يفارقه دقيقة واحدة منذ أن انتزعه الماركيز دو ساد من جسد الليدي تشاترلي قبل سويعات.

أما الماركيز دو ساد فوصل إلى أعلى بعد عودة قابيل بدقيقة. وعلى الفور توجَّه إلى غرفة زوربا حيث ترك مدام بوڤاري تعتني بصديقتها الليدي تشاترلي الجريحة وحيث يجلس المسكين زوربا مشلولًا على كرسي قرب السرير. كانت يداه خاليتين من أي سلاح، لكنه احتفظ في جيبه بسلك رقيق ادَّخره للحظات العصيبة. وحين صار في الغرفة وعانق مدام بوڤاري وقبَّل شفتيها بحرارة، أخبرها بالخطة التي أحكمها مع الباقين لمراقبة القاتل.

- أعتقد أننا سنظفر به الليلة. إن لم يكن قبل اجتماعنا بالكاتب العجوز هذا المساء فسنقبض عليه بعد الاجتماع بلا شكّ. إحساسي لا يخيب.

- أرجو ذلك يا شمعة روحي. تعبنا من القلق والترقّب.

- سينتهي الأمر هذه الليلة. أنا متأكّد يا فراشة قلبي. وسنحتفل بزواجنا قريبًا.

- أووه. ما أروعكَ وما أسعدني.

- وسأبيع قصري الكريه شاتو دو لاكوست لأشتري بثمنه بيتًا ريفيًا جميلًا بسيطًا في ضواحي باريس نسكنه مع أبنائنا وأحفادنا إلى آخر العمر.

- معكَ لن يكون هناك شيء اسمه «آخر العمر» يا حبيبي. معك سأحيا إلى الأبد.

- إلى الأبد.

كرَّر الماركيز دو ساد الكلمتين الأخيرتين من عبارة مدام بوڤاري وعيناه تطفحان بالحبّ ثمّ قال وهو يخرج:

- أشكرك لأنك تعتنين بهذين البائسين يا إيمّا. أنت امرأة رائعة.

ظلّ الأربعة، راسكولنيكوف والماركيز دو ساد وآدسو وقابيل، مرابطين في أماكنهم يصيخون السمع لأدنى حركة، ويراقبون أي طيف يلوح أمام أعينهم حتى حلول المساء. كان من المفترض أن يجتمعوا في الحانة مساءً ليطلّ عليهم الكاتب العجوز ويوضح لهم الخطط الجديدة التي ينبغي أن تسير عليها شخصياته في الدروب المتعرّجة لروايته الغريبة. لكنهم لم يعرفوا هل سينعقد الاجتماع أم لا. بل إنهم نسوا أمره وانشغلوا بمراقبة الأجواء تحيُّنًا لظهور القاتل في أي لحظة.

وبعد غروب الشمس بأقل من ساعة سمع قابيل صرخة مرعبة جعلته ينتصب واقفًا وهو يلوِّح بفكِّ الحمار. وكذلك فقد سمع راسكولنيكوف الذي كان يقوم بنوبة الحراسة عند بوّابة الفندق الكبيرة تلك الصرخة المرعبة.

كانت تلك الصرخة مدوّية، حتى أنها وصلتْ إلى مسامع الماركيز دو ساد وهو يراقب الممرَّ الطويل والمنافذ المؤدّية إلى الدرجات في الطابق الأوّل وتلك التي تهبط من الطابق الثاني.

احتاج الثلاثة لثوانٍ قليلة فقط ليتبيّنوا أنّ الصرخة قد صدرت عن الفتى آدسو. كانت صرخة خاطفة واحدة أعقبتها جلبة كراسٍ وطاولات ثمّ ساد الصمت.

ركض قابيل صوب الحانة ونزل الدرجات الثلاث عشرة على عجل. كانت الحانة معتمة لا يظهر فيها شيء، ولا يبدِّد عتمتها سوى شمعتين توشكان على نهايتيهما. احتاج قليلًا من الوقت ليرى طيف آدميٍّ يجرُّ جثة آدميٍّ آخر صوب باب صغير وراء البار. تذكّر أنّ إدريس كان قد أسرَّ له بشكوكه التي تحوم حول آدسو، وذلك قبل خروجه الطوعي من اللعبة ورحيله:

ـ أغلب الظن أنه هو القاتل. قيامه بالتحقيق ليس سوى تغطية على ما يرتكبه من جرائم.

حدّث إدريس وقتذاك قابيل بهذه الشكوك، إلّا أنّ هذا الأخير لم يعر تلك

الهواجس اهتمامًا. والآن؟ هل يمكن أن يكون آدسو هو القاتل حقًا؟ وإذا كان قاتلًا فمن هو القتيل هذه المرّة! تلاطمت الهواجس وقابيل يراقب ما يراه برعب. اختفى الطيف في ظلام ما بدا أنها حجرة خلفية، فتبعه قابيل بحذر وهو يُحكم قبضته على فكِّ الحمار. رسم خيطٌ من الدم دربًا نحيلةً سار قابيل إزاءَها بخطوات حذرة حتى وصل إلى باب الحجرة الخلفية الصغيرة فوقف عنده متحفّزًا. لم يكن هناك ضوء. عاد أدراجه وجاء بإحدى الشمعتين الهرمتين فرأى ما أخرسه.

في هذه اللحظة سمع جلبة راسكولنيكوف والماركيز دو ساد وقد وصلا إلى باب الحانة.

- من هناك؟

صاح الماركيز دو ساد بصوت يشي بالخوف.

- أنا. أنا قابيل. تعالا. تعالا وعاينا معي هذا المشهد.

- أيّ مشهد؟

قال راسكولنيكوف وهو ينزل الدرجات وقد سبق الماركيز بثلاث خطوات.

- لقد رأيت قبل قليل أحدهم يجرّ جثة إلى هذه الحجرة المظلمة خلف البار. والآن، في هذه اللحظة شاهدت عكّازة الكاتب العجوز في هذه الحانة.

- هل هذا يعني أنّ الكاتبَ مقتولٌ؟

- لا أدري. آدسو غير موجود هنا. وأعتقد أنّ القاتل يمكن أن يكون آدسو أو...

- لو كان آدسو على قيد الحياة لشعر بوجودنا وتحدث إلينا. أغلب الظن أنه هو القتيل هذه المرة وأنَّ القاتل قد نال منه.

- مهما يكن فالقاتل هنا. وهو قريب جدًا منّا، وعلينا أن نكون حذرين.

اجتمع الثلاثة عند باب تلك الغرفة الخلفية الصغيرة وتبادلوا الكلام بهمس. دقَّق راسكولنيكوف في العكّازة فرأى آثار دم طازج على مقبضها الذهبي.

- يا إلهي. هذه العكّازة أداة قتل. انظرا! إنها عكّازة الكاتب العجوز.

- فعلًا. وتبدو كأنها مغمّسة غمسًا في الدم. فلندخل. ليس أمامنا وقت كثير.

هذا ما قاله الماركيز دو ساد، فعقَّب قابيل وهو يمشي بحذر مع رفيقيه:

- الدائرة بدأت تضيق. القاتل إما آدسو وإما الكاتب العجوز.

- من هناك؟

صاح الماركيز دو ساد. فلم يردَّ أحد. أصاخوا السمع جيدًا. كلّ صمت الدنيا تكثّف تلك اللحظة في الحجرة الضيّقة التي بدا على أرضيتها خيطٌ من الدم هو أثر سحب الجثة.

استطاع راسكولنيكوف أن يجد في نهاية الحجرة عند الزاوية فتحة مربّعة بباب خشبي مقلوب على الأرضية الرطبة. اقتربوا منه. رأوا درجات قليلة تفضي إلى ما يشبه سردابًا مظلمًا فاحت منه رائحة واخزة كريهة جدًا هي مزيج من رائحة الرطوبة والعفونة والدم.

- إنه هناك.

صرخ راسكولنيكوف بصوت يرتعش من الرعب وهو يقف على الدرجة الأخيرة في أسفل ويسدُّ فتحتي أنفه بأصبعي السبابة والإبهام.

- من؟

بصوت واحد سأل قابيل والماركيز دو ساد وكلّ واحد منهما يشهر ما بيده من

سلاح. أجاب راسكولنيكوف بنبرة الرعب نفسها:

- شيء لا يصدَّق! كابوس حقيقي. الكاتب العجوز هو القاتل. ها هو يقف بين جثث من فقدناهم في الأيام الماضية: آدسو المسكين. العجوز سانتياغو. غريغور سامسا. يوهان موريتز. جثثهم ممدَّدة عند قدميه. واحدة تلوَ الأخرى!

في هذه اللحظة، التفت الشبح الواقف بين الجثث.

ظهر وجهه بوضوح. كان هو المؤلّف العجوز فعلًا. الكاتب اللّاهي الخارج من رماد مكتبته المحترقة ببدلته البيضاء ونظّارته ذات العدستين الدائريتين وشاله الحريري الأحمر. ببرود تامٍّ رمى العجوز سؤالًا ككرة من نار بين أقدام الثلاثة:

- ماذا تريدون؟

- ماذا نريد نحن أم ماذا تريد أنت؟ متى ستُنهي لعبتك؟

- هذه الأُلْهِيَّة لأجلكم. لقد منحتكم فرصة جديدة للحياة. لقد قلت لكم ذلك.

- فرصة للحياة؟ وهذه الجثث الممدَّدة عند قدميك؟ ماذا تقول عنها؟ وماذا ستفعل بها؟ من قتل أصدقاءنا الأربعة؟

- هذا جزء من اللعبة.

- زدتنا شقاءً على شقاء. لماذا فعلت هذا؟

- إنه اختبار وتسلية.

- بل هو إقلاق راحة. كنا سعداء بما نحن فيه.

- لقد أحييتكم من جديد. بعثتكم من مرقدكم ومنحتكم أصواتًا مختلفة في هذا

الفردوس الجديد. نسفت الأطر التي كنتم محبوسين داخلها.

- أحييتنا لتقتلنا وتتسلّى بالرعب الذي نكابده مذ جئنا إلى أرض روايتك. كنَّا نقيم سعداء في أعمال رائعة يعرفها الجميع في كلّ مكان، وسنبقى أحياء إلى الأبد بدون لعبتك هذه. أتيتَ بنا لتتسلّى بقتلنا. قل لنا لمَ قتلْتَ هؤلاء الأربعة؟ لماذا هبطْتَ بهم وبنا إلى أرض هذه الرواية أصلًا؟ لماذا طردتنا من فراديسنا؟

- لم يكن لهؤلاء الأربعة ضرورة فيما تبقّى من اللعبة. أكرِّر على مسامعكم ما قلته في البداية: أتيت بكم إلى هنا لأتيح مجالًا للتعارف بين شخصيات متباعدة في الزمان والمكان. وأعتقد أنكم قضيتم وقتًا طيبًا وأنني أنجزت هدفي الذي رسمته قبل البدء بتدوين أوّل سطر من هذه الأُلْهيَّة. أليس كذلك يا قابيل؟ ألم أمنحك فرصة تعرُّف أشهى امرأة في التاريخ؟ وأنت يا راسكولنيكوف؟ ألم تجد الطمأنينة هنا بعد دهر من العذاب والندم الذي ذقته على يد اللعين دوستويفسكي؟ حتى اللذيذة سونيا لم تكن لتمنحك هذه الطمأنينة والسلام الداخلي. وأنت؟ أنت أيّها الماركيز دو ساد الذي كان مجرّد ذكر اسمك يثير الغثيان والرهبة والنفور! ألم أبعثك في خلق جديد؟ لا يتصوّرك الناس إلَّا مجرمًا سفاحًا. لكنك الآن عاشق تذوب هيامًا بمجرّد أن تلامس كفَّ محبوبتك إيمّا. أيّ جرم ارتكبته حتى اجتمعتم عليَّ مثل الضباع؟ لقد كنتم سعداء جدًا حين أقمت حفل التعارف في بداية الأمر. هل تتذكّرون؟ صفَّقتم طويلًا ووجدتم في الأمر ما يقضي على رتابة إقاماتكم القسرية في الروايات. كنتم في غاية السعادة بقيامتكم تلك.

- ولكن أجبنا عن سؤالنا الذي نكرّره ولا تجيب: ماذا تقول عن الأربعة الذين قتلت؟ ماذا عن دون كيخوته ودروغو اللذين ماتا بذات الرئة وهما ينفثان الدم؟ عن زوربا المسكين الذي أوشكْتَ أن تحوّله قاتلًا ثمّ أصبته بالشلل؟ ماذا عن الليدي تشاترلي التي ترقد بين الحياة والموت؟ لولا ما فعلته بهؤلاء لكنّا سعداء حقًا. لكنك

أفسدت سعادتنا، ودمَّرتَ عالمنا الجديد الذي بنيته لمتعتك الخاصّة أيّها اللّاهي العجوز.

- الذين قتلتُهم لم يبق لوجودهم ضرورة روائية كما أخبرتكم. لكن ما عدا ذلك كان أُلْهيَّةً رائعة. والألْهيَّة مستمرة أيّها السادة. وأنا متأكّد أنّ القراء سيُعجبون بها كما كنتم معجبين بها في البداية.

- نحن لسنا قرَّاءً. نحن أبطال أعظم الروايات ولذلك فإننا من سنذير دفَّة السرد بعد الآن.

ردَّ العجوز وهو يشدُّ طرفَيْ شاله الأحمر بعصبية:

- سأبقى أنا الربَّان وستبقى دفَّة السرد بيدي. ولتعلموا أنه كان بإمكاني أن آتي بشخصيات أخرى غيركم. ليست الليدي تشاترلي أو مدام بوفاري هما المرأتان الوحيدتان اللتان وجدتا متعتهما الكبرى في الخيانات. كان بإمكاني مثلًا أن آتي بالفاتنة الروسية آنّا كارنينا مثلًا. جمال الروسيات يُضرَب به المثل، إنه خارقٌ أخَّاذ ويسلب ألباب الرجال. وأنا على يقين من أنكم جميعًا كنتم ستقعون في حبّها وسيقاتل بعضكم بعضًا لأجل الاستحواذ عليها. وليكن في علمكم أنّ السيدة آنّا تشترك في بعض تفاصيل حياتها مع كلّ من مدام بوفاري والليدي تشاترلي. هي أيضًا حملت سفاحًا من عشيقها تمامًا مثل الليدي تشاترلي، عشيقتك يا قابيل، عشيقتك التي خطفْتها من زوربا. وكذلك فإنّ آنّا وإيمّا كلاهما تتشاركان المصير المفجع عينه. انتحرت آنّا تحت عجلات قطار، وانتحرت إيمّا بالسمّ. هل تعتقدون أنني كنت عاجزًا عن إحضار محقّق أكثر حنكة ودراية من هذا الفتى البنديكتي الذي كانت أمنيته أن يكتشف القاتل؟ وبالمناسبة، فإنني قد حقّقتْ له هذه الأمنية.

- لقد قتلته.

صاح راسكولنيكوف غاضبًا وهو يهزّ الفأس. ردَّ الكاتب بهدوء:

- لولا ذلك لما كان بإمكانه أن يكتشفني. جئته وجهًا لوجه. رفعت عكّازتي بمقبضها الذهبي الثقيل استعدادًا لضربه ولـمّا رآني صرخ مرعوبًا. كانت صرخة يتيمة ثمّ انتهى أمره كما ترون. كان في نيّتي أصلًا أن أستقدم المحقّق الشهير پوارو من «قطار الشرق السريع». لكنني آثرتُ آدسو عليه لأنه فتى. أردته أن يتدرَّب على التحقيق الجنائي وأستمتع بتصرّفاته وزهوه بنفسه. أردتُه أن يقع في الأخطاء ويفشل في تحقيقاته ليتخلَّص من إعجابه بنفسه. المهم الآن أنني أودُّ القول إنّ قائمتي الأوّلية كانت تتضمّن لائحة طويلة بأسماء شخصيات كثيرة غيركم. مئات الشخصيات. أكاكي أكاكيڤيتش مثلًا. هذا المستشار الفخري البائس صاحب المعطف الشهير. تصوَّروا جمال الحوارات بينكم وبينه لو كان موجودًا؟ تصوَّروا ردَّ فعله حين يكتشف أن دون كيخوته مثلًا هو الذي سرق معطفه! تصوَّروا المتعة في لقائه بآدسو والطلب منه البحث عن اللصّ؟ ثمّ تخيلوا لو أطلقتُ شبحه في الليل لينقضَّ عليكم وينزع عنكم معاطفكم؟ هل تعرفون مقدار الرعب الذي كان سينالكم حينها؟

لم يتكلّم أحد. لم يكن أحد يفهم ماذا يقول، فآثروا الصمت جميعًا استعدادًا للانقضاض النهائي عليه. لكنه استمرّ يتحدث:

- من منكم يعرف فيرمينا داثا؟ لا أحد بالتأكيد. كانت فيرمينا هذه فتاة خارقة الجمال، فاتنة من فاتنات الكاريبي، تعلّق بها قلب الشاب فلورنتينو آريثا وعشقها كما لم يعشق رجل امرأة في حياته.

شدَّ قابيل قبضته على فكِّ الحمار، كزَّ على أسنانه وقال بنبرة تهديد:

- أنت تهذي كثيرًا أيّها العجوز. ها أنت تحدّثنا عن كائنات لا وجود لها إلّا في عقلك. سأقتلك.

ضحك الكاتب العجوز. نظر إلى القتلى وتأمّل جثثهم برهة قصيرة ثمّ رفع بصره وقال:

- يا قابيل، أنت الآن تتصرّف بإرادتي. تظن أنك حرٌّ الإرادة، لكن لا. أنا الذي أعطيتك جزءًا من الاختيار لتتحرّك بموجبه والذي أستطيع سلبك إيّاه متى أردت. إنك لن تستطيع قتلي ما لم أشأ ذلك. أنا لست هابيل. لذلك لن تستطيع التقدّم خطوة واحدة من دون إذني. أنا الذي جمعْتُ بينك وبين الليدي تشاترلي الشهية. أنا الذي جعلتك تقطف أشهى الثمار من ذلك الجسد البهي، ولولاي لما ظفرت بها إلى الأبد.

حاول قابيل أن يمشي خطوة إلى أمام، لكنه شعر بقيود ثقيلة تمنعه من الحركة. «أنت عجوز ساحر» قال ذلك في نفسه، لكنه. فوجئ بالكاتب يردُّ:

- لست ساحرًا يا قابيل. أنا مؤلّف. أنتم لستم سوى شخوص في خيال الظل وأنا المُخايل. أنا صانع شخصيات من العدم ونافخ الروح فيمن مات منها ومن لم يوجد أصلًا. لكن دعني أسرد لك ولرفيقيك راسكولنيكوف والماركيز دو ساد احتمالات أُلْهِيّتي هذه. سأبرهن لكم أنكم الأوفر حظًا من بين كلّ شخصيات الروايات العالمية. كنت أتحدّث عن «الحبّ في زمن الكوليرا» أليس كذلك؟ نعم. لو جئت بالفاتنة الكاريبية فيرمينا مثلًا لسجدتم لها. خمسون عامًا مضت من دون أن ينساها فلورنتينو حتى بعد أن تزوّجت طبيبًا من نخبة المجتمع. أنت قاتل محظوظ يا راسكولنيكوف. محظوظ حقًا لأنني منحتك شرف الحضور هنا. وأنت كذلك يا قابيل. أتظنان أنكما القاتلان الوحيدان في تاريخ الروايات؟ هل سمعتما بالقاتل اللقيط غرينُويْ؟ هذا القاتل الساحر الذي كان يستطيع تقطير جلود النساء ذوات الشعر الأحمر بعد قتلهنّ وصناعة أفخر عطر عرفه التاريخ؟ كان سيقتل بلا شك مدام بوڤاري والليدي تشاترلي أيضًا، وكنتم ستلتهمونه في النهاية بعد أن يسكب قارورة العطر على جسده النحيل. وهكذا أيّها السادة فقد كانت أمامي أعداد هائلة من الشخصيات وكلها تستحقّ شرف الانضمام إلى أُلْهِيّتي. كنت قادرًا على أن أطَعِّم روايتي حتى بشخصية من

شخصيات الروايات اليابانية التي انتشرت مؤخّرًا في أرجاء العالم. ولكم أن تتخيّلوا يابانيًّا يصبح عشيقًا للسيدة الجميلة آنّا كارنينا مثلًا؟ أو تتحوّل مدام بوڤاري والليدي تشاترلي صبيتين عذراوين من جميلات كاواباتا النائمات، وأجعل العجوز إيغوشي، أقصد العجوز سانتياغو يقضي ما تبقى من عمره في حضنهما بدل أن أقتله برمح سمكته!

في قائمتي الأوّلية أيّها الرفاق كان اسم اللصّ الثائر جان فالجان، أحد بؤساء ڤيكتور هوغو في المقدّمة. لكنني رأيت أنّ زيادة نسبة الفرنسيين في الرواية سَيَلْفت الانتباه إلى أنني متحيّز للرواية الفرنسية أكثر من غيرها. وهذا لا يجانب الحقيقة بأي حال. لكن ذلك لا يشكّل سوى جزءٍ من الحقيقة. صحيح أنني أحبُّ الرواية الفرنسية التي تركِّز على لبِّ الموضوع بعد أن تتحدّث عن الدائرة الكبرى المحيطة بالحدث ثمّ تصغر الدوائر والحلقات حتى نصل إلى المركز فنرى تفاصيله بدقّة تامة. كان دكتور جيفاغو الروسي أيضًا في القائمة. الطبيب الروسي يوري جيفاغو كان ضرورة في هذه الرواية. ولو كان موجودًا لتمكّن من مداواة جرح الليدي تشاترلي أفضل من الفتى آدسو الغرّ الذي لا يفهم شيئًا في الطب. كان الدكتور جيفاغو سيسهر على راحتها وراحتكم. وكان سيحدّثكم عن خرافة الثورات ووهم السعادة والحبّ المستحيل في ظلّ أنظمة تدمِّر روح الإنسان. لا أدري كيف حذفْتُ اسمه من القائمة ولصالح من منكم؟ بالتأكيد لو اعتمدت المسوَّدة الأولى لنفعَتْني كذلك شخصية المحقّق أو المفتّش جافير صاحب المعطف الأسود الطويل ليلاحقكم وينغِّص عليكم متعة إقامتكم في هذا الفردوس قبل أن ينتحر. كان في إمكاني أيضًا أن ألجأ إلى مسرحيات العمالقة، فأدعو الملك أوديپ من مسرحية سوفوكليس ليحاور پروميثيوس الذي أبدع في تصويره إسخيلوس. كنت قادرًا أيضًا على جرِّ ماكبث وروميو وهامْلِتْ وغيرهم من أبطال شكسبير الخالدين إلى حلبة هذا المسرح ليزداد عنصر الإدهاش في روايتي هذه وتصبح بالتالي لائقة باسم «فردوس الكاتب العجوز». وحتى من الملاحم العالمية ثمة

شخصيات عظيمة كنت قادرًا على استضافتها إلى هنا. هيكتور وآخيل ورستم وكاوهْ وأرجونا وجلجامش وعنترة وغيرهم ممّن ألهموا الشعوب لآلاف السنين لكنني اكتفيت بكم. ثلاثة عشر شخصية أحييتها لتقتلني في النهاية. الأمر برُمَّته - أيّها السادة - ليس سوى لعبة روائية. مجرَّد ميتاسرد ممتع. لعبة تشبه وضع مرآتين إحداهما مقابلةً للأخرى. تتكاثر المرايا المنعكسة ولا تنتهي. أليس كذلك؟».

لفَّ الكاتب العجوز شاله الحريري الأحمر على عنقه بعد أن انزلق عدّة مرات خلال الحديث وكاد يسقط. حدَّق في عيون الثلاثة يعاين وقع حديثه عليهم. كانوا متهيّئين للقتل ينظرون إليه بشرٍ تام. استعرض في ذهنه أخيلة الشخصيات الكثيرة والمثيرة التي ذُكرت في الروايات التي قرأها في حياته. تذكّر أهم تلك الشخصيات التي تفنَّن الروائيون في تصويرها وجعلوا بعضها رموزًا حار في تفسيرها النقّاد، ولم يتوصّلوا إلى فكِّ ألغازها ولا الاهتداء إلى كلمات السرّ التي يزيحون بتلاوتها الصخور عن بوّابات مغارات السرد. قفزتْ إلى ذهنه شخصية لطالما حيّرته. فصاح بصوت من وَجَدَ كنزًا:

- أنتم لا تعرفون بيكاس ابن الملّا بيناڤ؟ لا تعرفونه بالتأكيد. وضعْتُه، عند كتابة المخطّط الأوّلي للرواية، في رأس قائمة الشخصيات الثلاثة عشر التي ستتولّى مهمة السرد هنا. لكنني خفْتُ أن يصيبكم بالحيرة ذلك الذي ملأ رواية «فقهاء الظلام» بالحيرة والإدهاش. ولو كان الأمر بيدي لوضعت بيكاس في قائمةٍ لا تضم سوى مئة شخصية روائية من بين الشخصيات الأكثر تأثيرًا وعمقًا في تاريخ الرواية. كنت أخطّط أن آتي به إلى فضاء هذه الأُلْهيَّة لأنصفه على الأقل، وأعيده إلى سيرته الأولى طفلًا رضيعًا كباقي الأطفال الرضّع بعد أن ألقاه سليم بركات في أتون محنة لا تنتهي، ووضع أهله في متاهة معتمة. ربما أعدتُه طفلًا تتبناه الليدي تشاترلي بدل أن تحمل سِفَاحًا من عشيقها حارس الغابة من أجل الحفاظ على اسم العائلة وهكذا سيولد: بيكاس تشاترلي ويرث أملاك البارون الإنكليزي بعد موته. وربما كانت مدام بوڤاري

ستحبّ الطفل بيكاس وترضعه وتنسى الكآبة التي وقعت في مستنقعها بعد أن أنجبت طفلتها بيرت فخاب أملها. من يدري! ثمَّة احتمالات لا تنتهي.

تقدّم الماركيز دو ساد خطوة صغيرة وقال متبرِّمًا:

- لقد أرهقْتنا كثيرًا أيّها العجوز. أرهقْتنا وبلبلْتَ أفكارنا لأنك تخاطبنا الآن بكلام يشبه الهذيان، ونحن لا نفهم منه حرفًا واحدًا. تُحدِّثنا عن أناس لا نعرفهم. لكن ما نحن واثقون منه أنك أتيت بنا إلى هنا لترتكب مجزرة بحقّنا. أَرعبْتنا بما ارتكبتَه من جرائم. جرائمك فاقت جرائم الأسقف في روايتي. بلا شكّ كنت تخطّط لقتلنا جميعًا. أنت تتسلى بنا. وتستمتع بحيرتنا وضياعنا في هذا التيه السينائي الذي رميتنا فيه.

- بالضبط أيّها الماركيز. أنا أتسلّى برؤيتكم في هذا التيه السينائي كما وصفته بدقّة لم تخطر على بالي. ولهذا جعلت عنوان روايتي التي تنظمون عقدها الآن: الأُلْهِيَّة.

- أُلْهِيَّتك هذه هي أُلْهيَّة الموت.

- الموت هو الوجه الصامت للحياة يا ماركيز. أو لأعكس الحكمة: الحياة هي الوجه الصاخب للموت. وقد جئت بكم مرّة أخرى إلى صخب الحياة ولو في رواية. عليك أن تشكرني لأنني حطَّمت الكليشيه التي يتخيّلها الناس بمجرَّد ورود اسمك. أنت الآن عاشق ولهان، رقيق القلب. وستبقى صورتك هذه في أذهان كثيرين بالموازاة مع صورتك السابقة. ومن يدري؟ فربما تنافس الصورة الجديدة التي رسمتُها عنك صورتك القديمة التي رسمتَها بنفسك ثمّ تقضي عليها! لقد صنعتُ لك ولرفاقك أطرًا جميلة ووضعتكم فيها. الماركيز دو ساد بعد الأُلْهيَّة ليس هو نفسه قبل الأُلْهيَّة. وكذلك الباقون. إنني على ثقة من أنّ اللعبة قد استهوتكم. استهوتكم جميعًا ما عدا إدريس الذي غادر بإرادته.

ضرب راسكولنيكوف راحة يده بقفا شفرة الفأس عدّة مرّات وقال:

- أتّفق معك أيّها العجوز أنّ اللعبة استهوتنا. ولتعلم أنك اخترتها بنفسك، ولذلك لا بُدّ من أن تصبح جزءًا منها. لا بُدّ من أن تصبح ضحية ما اخترعتَه. انتهى دورك في اللعبة أيّها العجوز. سنقتلك. نعرف أنّ القتل شرٌّ، لكن ليس دائمًا. أحيانًا لا بُدّ من القتل إذا كانت الغاية منه نبيلة.

- وما النبل في القتل يا راسكولنيكوف؟

- أن نرتكبه لنمنع مزيدًا من إراقة الدماء. قتْل طاغية سفَّاح ضرورة لا بُدّ منها لوقف حمّامات الدم.

- فلسفتك هذه التي تقتبسها من روبسپيار، وباقي اليعاقبة من جزّاري الثورة الفرنسية، لا تهمّني أيّها الروسي المرعوب. أكرّر للمرّة الألف وأقول إنني أنا من يمسك بخيوط اللعبة كلها.

- لقد انتهى دورك وجاء دورنا أيّها المؤلّف. سنقتلك. لا لشيء إلَّا لأنك قتلت رفاقنا وستقتل آخرين إن تركناك حرًا. سنستلم منك خيوط اللعبة ونمسكها وندير اللعبة كما نريد.

- إذا كنتم ستقتلونني فسيكون القتل بإرادتي قبل كلّ شيء. كلّ ما يحدث في هذه الرواية بإرادتي لا بإرادتكم. وسيكون قتلي في نهايتها نوعًا من الانتحار اللذيذ. لتعلموا جيدًا أنّ موت المؤلّف يعني في النهاية حياة النص. يموت المؤلّف ليبقى النص. النصوص خالدة أيّها القتلة.

لم يَردَّ أحدٌ من الثلاثة المتأهّبين لقتل المؤلّف العجوز، بل نزلوا كالإعصار، غاضبين، مشبعين بالكراهية وروح الثأر والانتقام، يرفعون الأسلحة ويزأرون مثل كائنات وحشية لا تحرِّكها سوى الرغبة في التدمير.

لم يتحرَّك الكاتب العجوز. كان يعرف أنها النهاية، النهاية التي رسمها هو بنفسه وخطَّط لها حين كتب ملاحظاته على دفتره الصغير قبل البدء بكتابة السطر الأوّل في روايته. لم يقل شيئًا. اكتفى بابتسامة محيِّرة وهو يحدِّق في وجوه الثلاثة. ظهرت عيناه من وراء عدستَيْ النظّارة الدائريتين تلمعان مثل حبتيْ زيتون سوداوين مغمّستين بالزيت. كان فيهما شغف مجهول وبهجة محيِّرة. ظهر أنه مستسلم لقدره مستمتع بما يحدث. بدا مثل من يُقبِل على الانتحار بهدوء. لم يُفاجَأ بالخاتمة ولم يقل شيئًا. ظل يحدِّق في المهاجمين الثلاثة بصمت ولامبالاة حتى انقضّ راسكولنيكوف بفأسه الحادّة على رأسه. تبعه قابيل وضرب الرأس المهشّمة للتوِّ ضربة قوية بفكِّ الحمار فهوى الكاتب العجوز على الأرض بلا مقاومة وبلا صراخ أو طلب استغاثة. في تلك اللحظة تقدّم منه الماركيز دو ساد. أخرج السلك المعدني من جيبه ولفّه على العنق التي ملأت الدماءُ الأخاديدَ العميقةَ فيها. وحين رأى أنّ السلك المعدني الرفيع يؤلم راحة يده، عَمَدَ إلى شال العجوز الحريري الأحمر وصار يلفّه على عنقه الملطّخة بالدم ويشدهُّ بأقصى طاقته ويخنقه بلا رحمة. شعر الماركيز بلذّة مفرطة تسري في جسده كله كلما مضى في الخنق أكثر. وحين لفظ الكاتب العجوز آخر أنفاسه صامتًا مستسلمًا جاحظ العينين، انتصب الماركيز دو ساد وقد بلغ ذروة النشوة. حدّق في الكاتب العجوز. كانت ملامح الشعور بالألم بادية على وجهه المزْرقّ قليلًا من دون أن تغادر الابتسامة المحيّرة شفتيه.

أشعلت مدام بوڤاري ثلاث شمعات، وضعت إحداها على طاولة خشبية صغيرة بدُرج قرب رأس الليدي تشاترلي التي ظلّت تئنُّ طوال الوقت من شدّة الألم.

كان زوربا في تلك الأثناء ينظر عبر زجاج النافذة المغلقة إلى الظلام الذي يغلّف الكون ويبتسم ابتسامة عذبة. بدا أنه صار يستعيد بعضًا من عافيته من دون قدرته على الكلام. عادت عضلات وجهه وفمه ترسم ملامحه المألوفة السابقة. كان

يبتسم وهو يسمع مع الليدي تشاترلي الفصل الأخير من القصة التي ترويها مدام بوڤاري بصوت دافئ لتسرِّيَ عنه وعنها.

حين وصلت مدام بوڤاري إلى السطر الأخير وقرأت جملة «لفظ الكاتب العجوز آخر أنفاسه صامتًا مستسلمًا جاحظ العينين من دون أن تغادر الابتسامة المحيّرة شفتيه» لاحظت موجة من الحزن تغمر وجه الليدي تشاترلي المرهق. أطبقت دفّتيْ الكتاب ووضعته في درج الطاولة وانتظرت ردّ فعل صديقتها الجريحة.

- أووه. إنها نهاية حزينة يا صديقتي إيمّا. لقد قتلوا المؤلّف بكلّ وحشية.

- هي قصة بأي حال. قتلوه لتبقى القصة.

- لكننا موجودون فيها. إنها قصتنا. عشنا تفاصيلها المرعبة. واستمتعنا بلحظات شهية نادرة. ما اسم هذه الرواية يا إيمّا؟

- الأُلْهيَّة.

- إذن كان المؤلّف العجوز لاهيًا! يا لأُلْهيَّته المميتة يا إيمّا!

- الحياة كلها أُلْهيَّة يا كوني. لا تنسيْ أن أُلْهيَّة العجوز هي التي قتلته.

- هذا صحيح يا إيمّا. وصحيح أيضًا أنّ الحياة كلها، من لحظة الميلاد إلى لحظة الدفن، أُلْهيَّة صاخبة.

قالت الليدي تشاترلي ذلك بصوت خافت جدًا، ثمّ استسلمت للنوم وعلى شفتيها الشاحبتين شبح ابتسامة محيّرة.

دوَّى صوت انفجار عنيف فاهتزَّ له المبنى من أساسه، واهتزَّت كأس مغلي النعناع التي كان يشرب منها الكاتب العجوز، ثمّ سقطت وانسكب محتواها الساخن

يعلوه بخار لطيف. سقطت كذلك بعض الكتب من رفوفها، ثمّ سقطت المرآة المربّعة التي لم يجد العجوز وقتًا لكي يضع لها إطارًا، فعلّقها قبل أيام كيفما اتفق على الجدار قرب الباب من دون أن تتاح له فرصة النظر إلى وجهه فيها فيما بعد.

توقّف عن الكتابة للحظة قصيرة وصار يفكِّر في الجهة التي حدث فيها الانفجار.

- وهل هذا يهمّ؟ كلّ الجهات قاتلة.

قال في نفسه، ثمّ أخذ يفكّر في الجملة التي ينبغي أن يختم بها روايته.

- ماذا لو كتبتُ جملة النهاية مفتوحة على احتمالات كثيرة مثل مرآتين متقابلتين؟

واصل حديثه مع نفسه، ثمّ نهض ليأتي بشظيَّتين من المرآة المحطّمة للتوِّ ووضعهما بشكل متقابل أمامه ثمّ انحنى ينظر فيهما. كانت كلّ شظية تعكس الشظية المقابلة وتتوالد من الشظايا المتقابلة صور لانهاية لها، وهذه الصور بدورها تنعكس حتى أبعد نقطة من دون أن تنتهي.

- لن تنتهي هذه الاشتباكات الضوئية. لن تنتهي الصور المنعكسة في شظيَّتيْ المرآة ما لم تنتهيا من هذه المقابلة اللعينة أو تتحوَّلا رمادًا.

قال بصوت مسموع.

في هذه اللحظة دوَّى صوت انفجار آخر أشدّ من سابقه. بدأت الكتب تتساقط واحدًا تلو الآخر ولم يبقَ فوقها أيّ كتاب. ارتجَّ المبنى كله كما يحدث في زلزال قوي، ثمّ انهار في أقل من دقيقة وارتفعت ألسنة اللهب من كلّ مكان. لم يتسنَّ للكاتب

العجوز أن يفعل شيئًا. كلّ ما فعله أنه كتب جملة النهاية بشكل لم يُخطِّط له من قبل. كان سعيدًا لأنه أنهى الرواية بجملة مدوّية. دوَّن تلك الجملة التي جاءته في اللحظة الأخيرة على عجل، ثمّ اختفى هو وما حوله من كتبٍ في الحريق الهائل وعلى شفتيه شبحُ ابتسامة محيّرة.

من 2022/3/3 حتى 2022/3/23



صدر عن شركة المطبوعات للتوزيع والنشر

سلسلة الأدب

◆ روايات وقصص عالمية ◆

الروائي پاولو كويلو

- إحدى عشرة دقيقة (رواية)
- أَلِف (رواية)
- أوراق محارب الضوء (عبارات وعِبَر)
- بريدا (رواية)
- الجاسوسة (رواية)
- الجبل الخامس (رواية)
- حاج كومپوستيلّا (رواية)
- الخيميائي (رواية)
- الرابح يبقى وحيداً (رواية)
- رامي السهام (رواية)
- الزانية (رواية)
- الزَّهير (رواية)
- ساحرة پورتوبيللو (رواية)
- الشيطان والآنسة بريم (رواية)
- على نهر پييدرا هناك جلستُ فبكيت (رواية)
- ڤيرونيكا تقرّر أن تموت (رواية)
- مخطوطةٌ وُجِدت في عَكرا (رواية)
- مكتوب (عبارات وعِبَر)
- هيپّي (رواية)

جين ساسون

- بنات سموّ الأميرة (قصة)
- حلقة الأميرة سلطانة (قصة)
- خيار ياسمينا (قصة)
- سموّ الأميرة (قصة)
- سموّ الأميرة: الأسرار المباحة (قصة)
- سموّ الأميرة: حفنةٌ أخرى من الدموع (قصة)
- لأنك ولدي (قصة)
- مغامرة حب في بلاد ممزقة (قصة)
- ميّادة ابنة العراق (قصة)

جون غرين

- سلاحف إلى ما لا نهاية
- ما تخبّئه لنا النجوم

راوي حاج

- الصرصار (رواية)
- كرنفال (رواية)
- لعبة دي نيرو (رواية)

غيربرند باكر

- التوأم
- المنعطف

مارغريت دوراس

- التدمير
- مرض الموت

سردار أوزكان

- حبٌّ عَرَفَه الرومي (رواية)
- حين تستحيل الحياة نوراً (رواية)
- الوردة الضائعة (رواية)



- **«الأصولي» المتردِّد** – محسن حامد
- **ألف عام من الصلاة (قصص قصيرة)** – ييون لي
- **اعترافات غايشا** – آرثر غولدن
- **امرأة من ماريوپول** – ناتاشا فودين
- **بساط من الزهر الأحمر: البحث عن أفغاني** – نيلوفر بازير
- **بومبي** – روبيرت هاريس
- **بيل كانتو – الرهينة** – آن باتشيت
- **حكاية الشتاء** – پول أوستر
- **حياة** – دافيد فاغنر
- **الخجل والكرامة** – داغ سولستاد
- **دماء الأزهار** – أنيتا أميرسڤاني
- **عند تلاشي الضّوء** – أويغن روغه
- **فتاة من بلغراد** – لويس دو بيرنيير

- اللعنة على نهر الوقت – بير بيترسون
- متتالية فرنسية – إيرين نميروفسكي
- مدينة بوهاين – كيڤن باري
- موعظة عن سقوط روما – جيروم فيراري
- الناس والآخرون – قدري قلعجي

♦ مكتبة نوبل ♦

توني موريسون

- الديار
- رحمة

جان ماري غوستاف لو كليزيو

- بِتنا تحت سماء سيول
- العاصفة

يوكيو ميشيما

- حبٌّ محرَّم – (تخلّى عن الجائزة مرّتين)
- المعبد الذهبي

كنزابورو أوي

- اقتلعوا البراعم، اقتلوا الأولاد
- الموت غرقًا



- الضفادع – مو يان

♦ روايات وقصص قصيرة ♦

رجاء نعمة

- شيطان في نيو قرطاج (رواية)
- مذكّرات امرأة شيعيّة (رواية)

روحي طعمة

- امرأة للشتاء المقبل (قصص قصيرة)
- لا أحد يفهم ما يدور الآن (شعر)

سليم اللوزي

- خلف العتمة (رواية)
- ذبائح ملوّنة (رواية)

شاكر نوري

- جحيمُ الرّاهب (رواية)
- الرواية العمياء (رواية)
- مجانين بوكا (رواية)

د. عبد السلام فزازي

- الزمن المستعار... (رواية)
- ويسألونك عن الذاكرة (رواية)

عماد بزّي

- خلف أسوار بيروت (قصص قصيرة)
- فوق أرض لبنان (قصص قصيرة)

ليلى عسيران

- الاستراحة
- جسر الحجر
- الحوار الأخرس
- خط الأفعى
- عصافير الفجر
- قلعة الأسطة
- لن نموت غداً
- المدينة الفارغة

د. محمد طعّان

- رحلة بهمان (رواية)
- صيف الجرّاح (رواية)

منى دايخ

- إيزيس في القدس (رواية)
- بوح أنثوي (شعر)
- طلاق الحاكم (رواية)
- غزَل العلوج (رواية)

ملك محمد جودة

- أنا... والعيون الزجاجية (رواية)
- رواية ١٩٥٣ (رواية)

د. نعمة الله إبراهيم

- السيَر الشعبية العربية (قصص قصيرة)
- فروخ ناز – ألف يوم ويوم (قصة)



سلسلة الأدب

نوال السعداوي

- إنه الدم (رواية)
- **نوال السعداوي وعايدة الجوهري في حوار حول الأنوثة والذكورة والدين والإبداع (دراسة)** – د. نوال السعداوي ود. عايدة الجوهري

يسرى مقدّم

- الحريم اللُّغوي
- صباح الخامس والعشرين من شهر ديسمبر



- **أرملة مهندس** – صالح ابن عايض
- **إعصار بالتيمور** – حسين عبد الرسول سبيتي
- **إمرأة... وظلّان** – خلود عبدالله الخميس
- **ابن الحزب** – فيصل فرحات
- **احتضار الفَرَس** – خليل صويلح
- **بائع الفستق** – سمير عطا الله
- **Top كاميرا** – فاديا بَزّي
- **حقيبة حذر** – عاطف البلوي
- **رقص تحت أشجار الكستناء** – عباس جعفر الحسيني
- **الرؤْيَوان (قصص قصيرة)** – عمرو عبد الكريم
- **سأعطيك الحلوى شرط أن تموت** – وائل ردّاد
- **سوريّو جسر الكولا** – ياسين رفاعية
- **صورة على هاتفٍ جوّال** – إلهام منصور
- **العطر والفقر وما بينهما (قصص قصيرة)** – اسماعيل الأمين
- **عشّاق أمي (قصص قصيرة)** – هاجر عبد السلام
- **الغشوة** – راضي شحادة
- **في وسط العاصمة حانة مسحورة** – ساندرا تربونيّة
- **في حديقة الملك** – ميّادة العسكري
- **قصة مشربية – قصة يوطوبيا** – حسن فتحي
- **كأجراسٍ بعيدة...** – راتب شعبو
- **محاولاتٌ اغتيال علي (قصص قصيرة)** – محمد بركات
- **محاولة متأخرة للبكاء (قصص قصيرة)** – زينة حموي
- **مولود وثلاثة آباء** – نائل ماجد مجذوب
- **نهاية جيل** – محمد سعيد طالب
- **هل يفرّقنا الدين؟** – حسن السيد أسعد فضل الله
- **همنغواي الأديب العاشق** – أ. إ. هوتشنر
- **اللّاهي** – جان دوست
- **يونس بحري وموانئ الليل** – سامي البدري
- **١٨ يوماً في ميدان التحرير** – قصة رامي حبيب ورسم أحمد سليم

◆شعر◆

سليم حيدر

- آفاق
- أشواق
- إشراق
- ألوان
- ألحان
- أشجان
- لبنان
- يا نافخ الثورة البيضاء
- ألسنة الزمان
- مهرجان العدالة

طلال حيدر

- آن الأوان (شعر)
- سرّ الزمان (شعر)

مهدي منصور

- أخاف الله والحب والوطن
- الأرض حذاء مُستَعمَل
- الظـلُّ فجر داكن
- فهرس الانتظار

هادي مراد

- حرب الجسد

- كما يقع التفاح



- **أثواب الحزن** – هدى السراري
- **أنظر إليك** – مرام المصري
- **خريف من ذهب** – جوزيف طوبيّا
- **خطوات أنثى** – ردينة مصطفى الفيلالي
- **خفيفًا كزيتٍ يُضيء** – بلال المصري
- **ما يفعله الغريب في الليل** – محمد دياب
- **مثْل السَّكْت** – سوسن مرتضى
- **ميتينغ meeting** – جوليان حكيم
- **هو وهي في السعودية** – هتان بن محمد طاسجي
- **وراء الأفق** – إبراهيم أبو زيد
- **وصيّة شاعرة** – ناهد عيد
- **يساورني ظنٌّ أنهم ماتوا عطاشى** – غسّان علم الدين

♦دراسات♦

د. أحمد حاطوم

- في مدار اللغة واللسان
- قواعد فاتَتِ النُّحاة
- كتاب الإعراب
- المساجلات
- نقوش

محمد توفيق أبو علي

- ضوع الياسمين (شعر – حكايات – خواطر)
- صورة العادات والتقاليد والقيم الجاهلية في كتب الأمثال العربية – (دراسات)

عصام محفوظ

- عشرون روائياً عالمياً يتحدثون عن تجاربهم (دراسة)
- مختارات من الشعراء الرواد في لبنان (شعر)



- **أبعد من الريف: شعراء خالدون في عيون الألف الثالث** – لامع الحر
- **أثر الفكر الديني في روايات پاولو كويلو** – د. بكادي محمد
- **أحمد فؤاد نجم: تشخيص أوجاع الأمة المصرية** – د. كمال عبد الملك
- **أُخذَةُ كِشْ: أقدم نص أدبي في العالم** – ألبير نقاش وحسني زينة
- **إميل بجاني كاتب في الغربال** – تأليف عدد من الكتّاب
- **جدلية الحب والموت: في مؤلفات جبران خليل جبران العربية**– د. بطرس حبيب
- **الحب والتصوّف عند العرب** – د. عادل كامل الآلوسي
- **الدوائر المتّحدة المركز: دراسة نقدية في شعر نزيه أبو عفش** – نادين باخص
- **الرومنطيقيّة في الشعر العربي المعاصر** – د. فيكتور غريّب
- **سنوات ضائعة من حياة المتنبي** – هادي محيي الخفاجي
- **طه حسين (من الشاطئ الآخر)** – عبد الرشيد محمودي
- **علم الإبداع** – د. مروان فارس
- **مهما قلت... لا تقل** – نبيل سليمان
- **موسوعة الأمثال والحكم والأقوال العالمية** – إعداد: منير عبود

منشورات المجلس القطري للثقافة والفنون والتراث

- **تاريخ اللغات ومستقبلها (دراسة)** – هارالد هارمان
- **فلسطين في الشعر الإسباني المعاصر (شعر)** – د. محمد الجعيدي
- **هل كنا مثل أي عاشقَين؟ (رواية)** – نافتج سارنا

بالاشتراك مع مؤسسة محمد بن راشد آل مكتوم

- **أصل الغواية (قصص قصيرة)** – منتهى العزة



سلسلة الأدب

- باب للخروج (رواية) - طارق فرّاج
- حبيبتي الحقيقة (شعر) - أحمد طقش
- الخامدون (قصص قصيرة) - ربى عنبتاوي
- نسرين ستموت الليلة (رواية) - خديجة نمري

د. شكري نصرالله

- الثالث (رواية)
- قالوا... وفعلوا: وقائع من تاريخ العرب وتراثهم (حِكَم وأشعار)
- كنوز العرب (حِكَم وأقوال مأثورة)

في مكتبته المنسيّة في مدينة أحالتها الحرب حطامًا، ينزوي الكاتب العجوز سأمًا من الموت المحيط به. يلتجئ إلى الحياة على رفوفها لينطلق في مغامرةٍ ميتاسرديّة توقظ أبطال روايات خالدة خُطّت في أزمنةٍ وجغرافيّات متباعدة، فإذا بالإيطالي جيوڤاني دروغو يخرج من «صحراء التتار» ليدخل في «ألُهيَة» الكاتب العجوز ويثير نقاشاتٍ عن عبثيّة الحياة مع بطل «الشيخ والبحر»، الصيّاد الكوبي سانتياغو، وإذا بالليدي تشاترلي توقِعُ قابيل في شِباكها، فتثير غيرةَ زوربا، لتشتبك مجريات الأحداث المتداخلة أصلًا.

هي لعبة سرديّة واقعيّة خياليّة يُطوّعُ فيها جان دوست الزمنَ، فيُحاكي الحاضر بلسان الماضي والماضي بلسان الحاضر، ويكثّف أزمنة الروايات التي استعار «اللّاهي» أبطالها في زمنٍ واحد هو زمن القَصّ. أما المكان، فمشاهد سينمائيّة حيّة تَعبُرُ بالقارئ إلى قلب الحدث. بمبنى سلس ومعنى عميق، يطرحُ دوست أسئلةً جوهريّة على لسان شخصيّاته، عن ترابيّة الإنسان مقابل ورقيّة الشخصيّة الروائيّة، عن الثأر، والإيمان والمعتَقد، عن السلطة والتبَعيّة، عن الشكّ واليقين، في قالبٍ أدبي جمالي ممتع سيخرج منه القارئ ذاهلًا بعد طيّ الصفحة الأخيرة.



جان دوست، روائي، من مواليد 1965 كوباني - حلب - سوريا. درس العلوم الطبيعية في جامعة حلب (1989). حصل على جوائز عدّة في الشعر والقصة والرواية والترجمة منها الجائزة الذهبية لمهرجان كلاويز الأدبي- السليمانية (2014)، جائزة معهد الثقافة الكردية في فيينا (2021)، جائزة مهرجان مَمْ وزين- أربيل (2021). صدر له ثلاثون كتابًا منها اثنتا عشرة رواية ترجمت إلى أكثر من ست لغات. من رواياته: «نواقيس روما»، «ممرّ آمن»، «ميرنامه». يقيم في ألمانيا منذ العام 2000.


ISBN 978-6144-58-578-8

www.all-prints.com



شركة المطبوعات للتوزيع والنشر